ELISABETH DE LA TRINITE

par
ALBERT ABOUNA. Carme
BAGHDAD - 1985

مكتبة النور
قديس يوسف
غداد

ثمن النسخة ١٫٢٥٠ دينار

رقم الايداع في المكتبة الوطنية - بغداد
٦١٩ لسنة ١٩٨٥
مطبعة الرشيد بغداد هاتف ٨٨٧٩١٣٣

$6

ܒܝܬ ܐܪ̈ܟܐ

ܕܡܠܦܢܐ ܓܘܪܓܝܣ ܒܪ ܐܢܛܘܢ ܕܒܝܬ ܟܝܪܐܙ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܟܠ ܐܢܫ ܕܫܐܠ ܠܗ ܠܟܬܒܐ ܗܢܐ ܡܢ ܒܝܬ ܐܪ̈ܟܐ
ܐܘ ܦܣܩ ܡܢܗ ܡܕܡ ܢܗܘܐ ܡܫܬܟܚܐ ܒܝܬ ܡܩܕ̈ܫܐ
ܘܢܗܘܐ ܡܢ ܒ̈ܢܝ ܡܚܪ̈ܡܐ ܘܫܘܒܩܢܐ ܢܩܒܠ ܠܐ
ܒܝܬ ܠܗ ܣܦܪܐ ܟܠ ܢܗܘܐ ܗܘܐ ܠܗ ܣܦܪܐ ܒܝܬ
ܒܚܝ̈ܢܘܗܝ܂ ܒܪܡܐ ܕܢܗܦܘܟ ܠܗ ܠܒܝܬܗ܀

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

اليزابيت الثالوث الكرملية

الطوباوية

اليزابيت الثالوث الكرملية

(١٨٨٠ - ١٩٠٦)

تأليف

الأب البير أبونا

بغداد ١٩٨٥

بأذن الرؤساء

تقديم

أيها القارىء الحبيب،
أضعُ بين يديك هذه الصفحات،
لتكشف لك المغامرة الرائعة
التي عاشتها شابة كرملية
تُدعى «اليزابيت الثالوث»
وقد اعلنتها الكنيسة «طوباوية»
قد لا تكون حياتُها مثل حياتك،
الا ان الله الذي أحبَّتْه
هو هو لم يتغير.
وإن شئتَ فسيكشف لك،
كما كشف لاليزابيت :
حضورَه ومحبتَه.

المقدمة

ان الله يمن على البشرية في كل عصر بأناس يصبحون رواد الفضيلة والمحبة ويكشفون للبشر أجواء جديدة في عالم الروح الفسيح، ويدعون اخوتهم في البشرية الى ارتياد تلك الاجواء، ليس على ظهر مركبات فضائية، بل مستسلمين الى نعمة الرب القادرة ان توليهم نظرةً جديدة وان تفتحَ أمامهم آفاقاً لا متناهية يقفون ازاءها منذهلين، ويذهبون شطرَها واثقين، ليس بضعفهم، بل بتلك القوة التي تحملهم على جناحيها وتحلّق بهم نحو القمم الشامخة.

وفي غروب القرن التاسع عشر، منّ الله علينا بابنة صغيرة سرعان ما اصبحت للبشرية كلها بنتاً حبيبة ومثالا قريبَ المنال في بساطتها وانسانيتها، وفي تلك المحبة العظيمة التي عرفت ان تجسّدها في جميع اعمالها: انها القديسة تريزة الطفل يسوع، «تريزة الصغيرة».

وفي مطلع هذا القرن، تخرجت في المدرسة الكرِملية عينها فتاة أخرى، وجدتْ «أخبارُ نفس» صدى عميقا في حياتها، وراحت تعيش خبرة جديدة هي حياة الله فينا أو حياتنا في الله الحاضر في اعماق نفوسنا. انها الاخت اليزابيت الثالوث، الراهبة الكرملية التي توفيت هي ايضاً، مثل اختها تريزة الصغيرة، في زهرة شبابها. الا ان السنين القصيرة التي عاشتها على ارضنا كانت كافية لنعمة الله لكي توصلها الى ذروة حياة المحبة والعطاء.

لقد تعرفتُ الى هذه الراهبة الشابة، من خلال حياتها وكتاباتها، منذ نحو اربعين سنة، يوم كنت طالبا في معهد ماريوحنا الحبيب الكهنوتي في الموصل. ومنذئذ توطدت بيننا صداقة روحية عميقة زادتها السنوات رسوخا، وأولتْها احتكاكاتي اللاحقة بالكرمليات واقعيةً وثباتاً. وكم تمنيت في اعماق نفسي ان تسرع الكنيسة في اعلان قداستها وتقديمها مثالا للعالم المعاصر الذي يفتقر الى هذه النماذج الرائعة لكي تضعه أمام تلك المثل العليا التي يتوخاها الله منه...

مرت سنوات طويلة... وإذا بتلك الاماني شرعت تتحقق... كانت الكنيسة مهتمة بقضية الاخت اليزابيت اهتماما كبيرا، وهي تنتظر علامة من الله لكي تعلن تطويبها. وجاءت تلك العلامة... وعزمت الكنيسة على اعلان هذا التطويب الذي جرى في **٢٥** تشرين الثاني **١٩٨٤**.

انها لفرصة ثمينة وفرحة كبيرة، ليس للاسرة الكرملية حسب، بل للعالم كله، ان يتلقى هذه الهدية النفيسة، فتصبح هذه الكرملية الشابة دليلا لنا في طريقنا الى الله في هذا العالم الذي طالما نتشكى من الضجة والفوضى والسرعة واللامبالاة بشؤون الروح التي نلقاها فيه. فتأتي اليزابيت لكي تقول لنا اليوم ان الله بانتظارنا في اعمق كياننا، وان حياتنا يمكن ان تكون «تسبحة مجدٍ» دائمة نرفعها الى الله حتى في وسط ضوضاء العالم ومهامه المتشعبة. ولتحقيق ذلك يكفي ان ننزل الى عمق كياننا، لكي نلتقي الله الذي بحضوره يقدسنا ويقدس شؤوننا البشرية كلها...

واني في هذا الكتاب، سأترك المجال غالبا لاليزابيت لكي تحدثنا عن ذاتها وعن روحانيتها. كما اني اضيف الى الكتاب ملحقا يضم الرياضة الاخيرة التي قامت بها على الارض قبيل موتها، وخواطر تطلعنا على زبدة افكارها وخلاصة طريقتها الروحية.

وانتهز هذه الفرصة لكي اقدم للقراء الاحباء هذه النبذة الوجيزة من حياة الطوباوية الجديدة اليزابيت الثالوث، وأسأل الله ان يولي كلاً منا قلبا متجاوبا مع متطلبات النعمة ومتناغما مع تلك المحبة العظيمة التي يخصنا الله بها، فنحقق دعوتنا السامية، ونبلغ القامة الروحية التي يريدها الله لنا في المسيح ربنا.

★ ★ ★

الفصل الأول
اليزابيت في العالم

ميلادها

ابصرت اليزابيت النور في صبيحة الاحد الموافق ١٨ تموز سنة ١٨٨٠، في معسكر «أفور» القريب من مدينة «بورج» الفرنسية حيث كان والدها يوسف كاتز ضابطا في الكتيبة الثامنة.

كان والدها ينتمي الى عائلة مزارعة فقيرة، وقد ولد في ٢٩ أيار سنة ١٨٣٢، وكان الرابع في اسرة ضمت سبعة أولاد. وفقد أباه وهو ما يزال في الثامنة من عمره. فاضطر الى شق طريقه الى الحياة بعزيمة ورثتها عنه ابنته اليزابيت. ففي الحادية والعشرين من عمره، تطوع في الجيش. واشترك في حملة الجزائر ثم في حرب سنة ١٨٧٠ حيث أُسر في معركة «سدان». وبعد اطلاق سراحه، عُيِّنَ ملازما سنة ١٨٧٢ ثم ضابطا سنة ١٨٧٥ في حامية «لونيل». وهناك تزوج في ٣ أيلول سنة ١٨٧٩ من ماري رولاند ابنة القائد المتقاعد ريموند رولاند.

ماري رولاند والدة اليزابيت

يوسف كاتز والد اليزابيت

أمـا ماري ، والـدة اليـزابيت ، فكـانت من منطقـة لورين ، وقـد ابصرت النور في ٣٠ آب سنة ١٨٤٦ في «لونفيل» حيث كان والدها مقيما بصفـة ضابـط حامية . وكانت ماري تتسم باحساس مرهف وتمتاز بروح اجتماعية كبيرة ، مما اكسبها العديد من الصداقات . وقد مات خطيبها الاول في حرب سنـة ١٨٧٠ ، وخلف في قلبهـا جرحـا بليغـا وحزنا عميقا دفعهـا الى العكـوف على حياة مسيحية رصينة جدا . وراودتها حينا فكرة الدخول الى احدى الرهبنات . وكانت عرضة للقلق ، تحت تأثير التيار الجانسيني .

مكثت اسـرة كاتـز نحو تسعة اشهر في معسكر «أفور» بعد الزواج. وهنـاك ولـدت طفلتهـا الاولى «اليـزابيت»، وكـانت الـولادة عسرة جدا كادت تقضي على الوالدة والطفلة معا. الا ان الله انعش الرجاء في نفس الـوالـدين، فولـدت الطفلة، وكانت، حسب شهادة الوالدة «جميلة جدا ونـابضـة بالحيـويـة». وفي ٢٢ من الشهـر عينـه، وهو عيد القديسة مريم المجدلية، مُنحت العماد المقدس. وفي هذا المعسكر ايضا سمعت الطفلة اليـزابيت اصـوات الابواق ورأت الجند والخيل. وهناك مُنح والدها وسام فارس جوقة الشرف.

اليزابيت في الشهر التاسع من عمرها

اليزابيت مع لعبتها «جانيت»

في العاشر من ايار سنة ١٨٨١، انتقلت سرية الضابط كاتز الى ثكنة «اوكسون» القريبة من مدينة ديجون في اواسط فرنسا. ومن هناك تحدثنا الوالدة عن ابنتها اليزابيت التي بلغت شهرها الحادي والعشرين وتقول: «انها محض شيطانة. فهي تسحل ذاتها، ويلزمها كل يوم زوج جديد من السراويل البيضاء... وهي ايضا كثيرة الكلام».

هذه هي الاخبار الاولى التي وردتنا عن قديسة المستقبل. الا ان هناك غيرها أكثر تصوفا. فتقول والدتها: «... انها ذهبت وقت التقدمة وقبّلت المصلوب، وهي كانت تقبّله قبل الوصول اليه... انها لا تكتفي بالصلاة من أجل جدتها المريضة، بل تلقّن لعبَتها الصلاة وتضعها في هيئة الركوع والتضرع». وكثيرا ما نجد اليزابيت مع لعبتها الشهيرة «جانيت» في صور ذلك العهد. انها ما زالت طفلة صغيرة، ولكنها تتسم من الآن بارادة صلبة وبعزم لا يلين.

في ديجون

توفيت جدةُ اليزابيت في ٩ أيار سنة ١٨٨٢. وبعد مدة قليلة جاء جدها رولاند وسكن بين أسرة كاتز. وفي ١ تشرين الثاني ١٨٨٢، انتقلت الاسرة الى مدينة ديجون واستقرت في دار واسعة جميلة (فيلا) في شارع لامرتين بالقرب من محطة القطار في ضواحي المدينة. وهناك ولدت طفلتها الثانية ماركريت في ٢٠ شباط ١٨٨٣.

البزابيت في نحو الرابعة من سنها

كانت ماركريت (كيت) هادئة وديعة، بينما كانت اليزابيت (زابيت) «الضابطة الصغيرة» تنبض حركة وحيوية، ولكنها طيبة القلب وتحب والديها حبا جما. وتتذكر «كيت» تفاصيل عن طفولة اختها وتقول: «انها كانت كثيرة الحركة، بل خرقاء أيضا، ولديها سورات غضب، سورات حقيقية، وكانت شيطانة جدا.» ذلك لان اندفاعها واحساسها ما زالا غير موجهين. وتتكلم والدتها عن «عينيها اللتين تقدحان غضبا». وتتذكر احدى صديقاتها، وهي ماري - لويزة هالو، «نظرتها المتقدة». ولكن هذه الصديقة التي تتكلم عن السنين اللاحقة، تشير بذلك الى الحرارة والتقوى المنبعثتين من نظرة اليزابيت.

كان الوئام سائدا في اسرة كاتز، وكذلك الألفة والبساطة. وهذا ما نستشفه من مقطع ورد في رسالة كتبتها السيدة كاتز في ٢٨ نيسان ١٨٨٥ الى «يوسفها الطيّب»، الذي كان في جولة في شمال البلاد، وربما كان يعاني من مرض القلب: «لا تنس نصائحي، دارِ نفسك، لا تفرط في شرب البيرة والسيكار، اعتن بصحتك، وفكِر فينا»: خمسة أوامر في سطر واحد. فان الزوجة التي تسهب في رسائلها عادة، تعرف الايجاز ايضا. ولعلنا نرى من وراء هذه الكلمات طبع السيدة كاتز المهتم والموجه - وهذا ما نلمحه ايضا في يوميات اليزابيت - وطبع الضابط المرح والاجتماعي، بالاضافة الى مفهوم الواجب والنزاهة لديه.

وتواصل الرسالة: «ان الصغيرتين عاقلتان نوعا ما. واليزابيت غالبا ما تفكر فيك وتتحدث عنك. انها تعدّ الايام»، كما تشهد لذلك

الكلمات القليلة التي كتبتها اليـه . وفي ٢ حزيران ١٨٨٥ تقاعد الضابط كاتز وأخلد الى الراحة .

واذا عرفت اليـزابيـت الصغـيرة ان تذرف حتى الآن دمـوع الغضب ، ودمـوع النـدامـة اذا ما اغـاظت والدتها ـ تلك الدموع التي لا تصـدر الا عن العينين ـ فانهـا قريبـا ستختـبر الشـدائد الحقيقية الاولى وستذرف دموعا صادرة عن القلب .

فقد توفي الجد ريموند رولاند في ٢٤ كانون الثاني ١٨٨٧ . وما ان مضت ثمانيـة اشهـر على هذا المصاب ، حتى حلَّ بالعائلة المسكينة حزن آخر أشـدُّ ألما . ففي صنبيحة الاحد ٢ تشرين الاول ، باغت الموت السيد كاتـز على أثـر نوبـات قلبيـة متكـررة . وبموته ترك فراغا هائلا في الاسرة ونقصـا في موارد معيشتهـا . فاضطرت الوالدة الى ترك المنزل الكبير والى السكنى في الطـابق الثـاني من منزل في المدينة ، مع ابنتيها وخادمة شابة . وكـانت اليـزابيت الصغـيرة تلمـح من دارهم الجـديـدة بناية غريبة وسط بستان واسع : انه دير الكرمليات الحبيسات .

لاشـك ان الغيـاب المفاجيء لشخصين حبيبين قد خلف في نفس الصبيـة شعـورا عميقا بسرعة زوال الحياة ، وشدّها بنوع أوثق الى والدتها والى «كيت» الصغيرة . وكذا الشأن مع الانتقال من بيت فخم الى بيت اعتيـادي بسيـط . ان الثـلاث ـ أو «الثلاثي » كما كانت اليزابيت تحب ان تقـول بعـد ذلك ـ متحدات جدا ، ولكنهن لسن منغلقات على ذواتهن . فهنـاك الاصـدقـاء الامناء ، والعلاقات الجديدة التي تكونت حول المنزل

اليزابت مع اختها الصغرى ماركريت

الجديد، والاسفار السنوية عند الاقارب والصديقات. فقد حظيت اليزابيت بآفاق جيدة، وكان المنزل يقع بالقرب من المتنزه الكبير ومن الضواحي والحقول.

الا ان نفسَ اليزابيت كانت تصبو الى آفاق لا متناهية. فما كادت تبلغ ربيعها الثامن، حتى افضتْ الى كاهن كنيسة القديس هيلاريوس برغبتها في الترهُّب.

لاشك ان السيدة كاتز لم تكن غنية، ولكنها كانت تنعم بسعة عيش تمكنها من تأمين تربية حسنة لا بنتيها. فقد تلقت اليزابيت، وهي في السابعة من عمرها، دروسها الفرنسية الخاصة الاولى على الآنسة «غريمو». وحينما بلغت الثامنة من سنها، سجلتها والدتها في المعهد الموسيقي في ديجون، بغية اعدادها لمهنة معلمة بيانو. وتواصلت الدراسات الكلاسيكية بصورة متباعدة، في حين ان الموسيقى شغلت عند اليزابيت الموضع الاول: فهناك العمل في المعهد الموسيقي، ودروس مشتركة وأخرى خاصة، وفي البيت كانت تمضي ساعات طويلة كل يوم في العزف على البيانو الذي اضحى هوايتها المفضلة.

ان موت الوالد، والحق يقال، حدَّ بعض الشيء من حيوية اليزابيت العارمة، ولكن الحياة سرعان ما عادت الى مجراها الطبيعي وعادت معها سورات الغضب المعتادة لدى اليزابيت. فتتذكر الانسة «غريمو» «الارادة الفولاذية» لدى طالبتها الصغيرة، وكذلك اختلاءها العميق في الكنيسة ـ لان من شيمة اليزابيت ان تذهب دوما الى عمق الامور وتعطي كل شيء حقه ـ الا ان الامر لا ينبغي ان يسدل الستار على نقائصها. فتتذكر «كيت» ان غضبات اختها كانت من العنف احيانا بحيث يتهددونها بادخالها كطالبة داخلية في معهد «الراعي الصالح»، وهو موضع للاصلاح يقع بالقرب من المنزل، وانهم كانوا يتظاهرون باعداد حقيبتها لهذا الغرض.

ولكن «زابيت» ايضا مستقيمة جدا. وحينما تدرك انه لا يجوز لها ان

اليزابيت في العاشرة مع والدتها واختها

تكـون ثقـلا على الآخـرين، تتراجـع سريعـا عن اخطائها وتؤنب ذاتها عليهـا. ويقـول الشهـود ان اعـترافهـا الاول، وهي في السـابعة، دفعها بصـورة ملحـوظـة الى النضـال ضد نزواتها الصبيانية واصبح منطلقا الى اصلاح نقائصها.

اليزابيت في يوم مناولتها الاولى

وما أكثر الصفات الرائعة في قلبها الجذاب والسخي الذي لا أثر للالتواء فيه! فهناك رسالتان منها تشهدان بنبرة من الدهاء، على مقاصدها الحسنة، ولا سيما على جهودها لعدم الاستسلام الى الغضب. ففي رسالة العام الجديد، كتبت الى والدتها:

«أمي الغالية، اني اذ اتمنى لك سنة سعيدة، اريد أن أعدك بأني سأكون عاقلة ومطيعة جدا، وبأني لن اجعلك تغضبين عليّ ابدا، وبأني لن ابكي، بل سأكون قدوة صغيرة لكي افرحك. ولكنك لن تصدقيني. الا اني سأبذل قصارى جهدي في الوفاء بوعودي، لئلا اكون قد كذبت في رسالتي، شأني في ذلك احيانا. كنت افكر في كتابة رسالة طويلة، طويلة جدا، ولكني لا ادري ماذا اقول بعد. ومع ذلك فسترين اني سأكون عاقلة جدا. اقبلك يا امي الغالية». ونقرأ في الرسالة الاخرى هذه العبارة التي كتبتها ابنة لا تتجاوز سنتها التاسعة والنصف: «... وبما انني ارجو ان اسعد قريبا بالقيام بمناولتي الاولى، فاني سأكون أكثر تعقلا، اذ سأسأل الله ان يجعلني افضل مما أنا عليه.».

التناول الاول والتثبيت

كانت ستة عشر شهرا ما تزال باقية أمام اليزابيت ليوم تناولها السعيد. فعكفت بجد على تلقي دروس التعليم المسيحي. الا ان هذا لم يمنعها من ان يعاقبها نائب الخوري يوما بالركوع، مع صديقة صغيرة لها، في وسط الممشى.

نظرة صافية وتأملية

أخيرا، جاء اليوم التاسع عشر من نيسان سنة ١٨٩١، يوم لقائها الاول بيسوع في سر الاوخارستيا، اليوم الذي اشتاقت اليه شوقا شديدا، وتهيأت له بكل ما توفر لديها من وسائل. ماذا ترى جرى في قلبها يوم لقائها الاول بيسوع؟ لقد حاولت التعبير عما جرى لها بمقطوعة شعرية نظمتها في الذكرى السابعة لهذا الحدث العظيم. الا ان التعابير تعجز عن اداء الحقيقة العميقة بين الرب والانسان. مهما يكن من امر، فان دموع الفرح اخذت تسيل بغزارة على وجهها خلال القداس والشكر. . . ولدى خروجها من كنيسة القديس ميخائيل حيث جرى التناول، قالت لماري ـ لويزة هالو: «اني لست جائعة، لان يسوع قد غذاني!»

أجل، اننا نستشف كثافة هذا اللقاء الاول من خلال تلك القطعة الشعرية التي وضعتها احياء للذكرى السابعة لهذا الحدث العظيم، والتي كتبتها لنفسها فقط. ونقرأها في يومياتها:

في ذكرى ذلك اليوم،
الذي فيه جعل يسوع فيّ مقره،
وفيه استحوذ الرب على قلبي،
بحيث اني منذ تلك الساعة
ومنذ ذلك الحديث السري،
ذلك الحديث الالهي العذب،
لم أكن اتوق سوى الى بذل حياتي

اليزابيت في الثالثة عشرة وهي تعزف على البيانو

والى وفاء شيء من هذا الحب الكبير
لحبيب الاوخارستيا
الذي سكب في قلبي الضعيف
فيض كل انعاماته.

وفي مساء ذلك اليوم البهيج، قامت متوشحة بثوبها الناصع البياض بزيارة الى الام ماري يسوع، رئيسة دير الكرمل، التي سرت بها وشرحت لها معنى اسمها: «بيت الله»! وتأثرت الصبية تأثرا عميقا ومستديما بهذا المعنى. اجل لقد شعرت في هذا الصباح ان الله حقا يسكن في نفسها!

وفي ٨ حزيران سنة ١٨٩١، تلقت اليزابيت سر التثبيت في كنيسة السيدة العذراء.

ويجمع الشهود على الاشارة الى تقدم اليزابيت الملحوظ في درب عطاء ذاتها، منذ تناولها الاول. أجل، انها تعطي ذاتها ليسوع، لانها تدرك الآن المحبة العظيمة التي ابداها لنا في آلامه وموته وفي حضوره الاوخارستي بين البشر. ويسوع بدوره ينعشها في اعماق نفسها. وغالبا ما تسيل دموع الفرح على خديها عند تناولها. وأخذت تتعلم بكل طاقاتها ان تنسى ذاتها لاجل يسوع ولاجل الآخرين. وشرعت سورات الغضب تتضاءل عندها، أو بالاحرى صارت اليزابيت تعيشها وتتغلب عليها من الداخل. انها تشعر بان يسوع قد اكتسبها، وأخذت تستعذب الصلاة، ونمت فيها الرغبة في الاختلاء.

اليزابيت في السادسة عشرة من سنها

الا انها، لدى بلوغها الثالثة عشرة من سنيها، اجتازت أزمة داخلية تخللتها الوساوس من جراء طريقة التعليم المسيحي في ذلك العهد حيث كانوا يصوّرون الله ديانا صارما يحاسب الانسان على كل شاردة وواردة، ويقف له بالمرصاد على كل مخالفة، ويقتضي من الانسان للدنو منه أمورا تكاد تكون متعذرة عليه. فتولى اليزابيت الصغيرة المسكينة شعور بالقلق والحيرة أمام تلك الاوامر والنواهي التي كانت تقيّد حرية الانسان في مسيرته الى الله. ولكن لحسن طالعها، نالت مساعدة فعالة من معرّفها الذي تفهم صعوباتها وساعدها على اجتياز تلك المرحلة العصبية التي كان من شأنها ان تقود الفتاة المسكينة في منعطف خطر.

وفي الثالثة عشرة أيضا، احرزت اليزابيت كاتز نجاحا باهرا في الموسيقى، اذ حصلت على الجائزة الاولى بالبيانو من المعهد الموسيقي في ديجون. وبذلك استحقت عطلة جميلة وأسفارا رائعة قضتها في مختلف ارجاء فرنسا. وقد وصفت هي ذاتها هذه العطلة وقالت:

«ان عطلتي تسرني الى الغاية. فقد مكثنا خمسة عشر يوما في «جيمو»، عند السيدة «دي سوردون» التي لم تكن تريد ان نغادرها البتة. وقد استأنسنا هناك كثيرا. فكنا نلعب طويلا بلعبة الكروكي، ونقوم بتنزهات رائعة، وكنت غالبا ما اعزف على البيانو. والسيد أمير «جيمو» يحب الموسيقى كثيرا، فكنا غالبا ما نتردد الى قصره.

«ولما غادرنا جيمو، ذهبنا الى «ميركورت». وهناك اقيمت حفلات عشاء كبيرة وعصرونيات عديدة على شرفنا. وسرعان ما انقضت الايام

اليزابيت وماركريت بين صديقتيهما في «جيمو»

الخمسة عشر لاقامتنا هناك. وأخيرا، منذ الثاني من ايلول، نحن في منطقة «جورا» حيث نقوم بجولات كبيرة. وكم اني احب غابات الصنوبر تلك!»

النداء الاول

حينما بلغت اليزابيت الرابعة عشرة من عمرها، شعرت ذات يوم بعد التناول شعورا قويا يدفعها الى تقديم حياتها للرب والى القيام بنذر البتولية الدائمة. ولم تمض مدة طويلة حتى اتضحت لديها فكرة الحياة الرهبانية التي كانت تحلم بها منذ ربيعها السابع واخذت كلمة «الكرمل» تتردد دوما وتتبلور في اعماق نفسها.

هيئتها الخارجية

في هذه الفـــترة، زوّدتنــا اليـــزابيت بوصف ضافٍ حول هيئتهـــا الخارجية وطباعها وميولها، في واجب انشاء فرضته عليها معلمتها الجديدة الآنسـة «فـوري». فراحت التلميذة المطيعة تكتب كل ما تعرفه عن ذاتها بصدق وبساطة لا يخلوان من روح الفكاهة:

«ان وصف الذات وصفا ماديا وادبيا موضوع دقيق المعالجة. ولكني استجمع كل قوتي واشرع في العمل:

«أظن دون كبرياء ان هيئتي العامة لا تدعو الى الاشمئزاز.

«اني سمــراء. ويقـال ان طول قامتي لا يتنـاسب مع عمـري. لي عينان سوداوان براقتان، وحاجباي الكثيفان يولياني مظهرا من الصرامة. أمـا بقيـة شخصيتي فغـير ذات شأن. وسـاقـاي اللطيفتان من شأنهما أن توليـاني لقب اليـزابيت ذات الساقين الطويلتين، مثل الملكة «بيرتا» . . . هذه هي صورتي الطبيعية.

«وبـما ان الحـديث الآن يجري حول الصورة الادبية، فأقول ان لي طبعـا لا بأس به. فأنـا أميـل الى البشـاشة. بيد ان عليّ ان أقربأني على شيء من الطيش. لي قلب طيب، وانـا بالطبـع اميل الى الاناقة. ويقال انه من الضروري ان يكون المرء كذلك بعض الشيء. لست متكاسلة: فاني ادري ان العمل يرد المرءَ سعيدا. ومع كوني لست مثالا للصبر، فاني اعرف عامة ان اسيطر على ذاتي. لا اثر للحقد في نفسي . . . هذه هي

صورتي الادبية . لي نقائصي ، وقليل من الخصائل ، ويا للاسف! ولكني ارجو اكتساب المزيد منها .

« أخيرا ، هوذا قد انتهى هذا الواجب المزعج ، واني مسرورة جدا بانتهائه . »

الا ان في هذا الواجب فراغين كبيرين . فلم يرد فيه أي ذكر لموهبتها الموسيقية . فبالاضافة الى كونها قد حازت على الجائزة الاولى بالبيانو، كما ذكرنا سَابقا ، فهي تشارك في الحفلات الموسيقية التي تقام في المعهد الموسيقي في المدينة والتي تذكرها الصحف المحلية . فهناك مثلا ما كتبته صحيفة «تقدّم ساحل الذهب» في ٨ آب سنة ١٨٨٣ :

« ان الآنسة كاتز، الجائزة الاولى في البيانو، من صف السيد «ديتريش» ، اثارت موجة من التصفيق العام بعد «كابريتشيو» الباهر لمندلسن . كان المنظر رائعا حينما تقدمت هذه الصبية من البيانو، وهي لا تكاد تبلغ الثالثة عشرة من عمرها ، وقد اصبحت من الآن عازفة بيانو ممتازة ، لها اصابع رشيقة ورنين جميل واحساس موسيقي حقيقي . ان بداية كهذه تتيح عقد آمال جميلة وكبيرة على هذه الطفلة » .

وواصلت اليزابيت دروسها في المعهد الموسيقي سنتين أخريين .

وهي تروي بشهامة كيف حرموها ظلما جائزة الامتياز لسنة ١٨٩٤ :

«حدثت ضجة كبيرة بشأني في المعهد الموسيقي : فان لجنة التحكيم كانت قد اجمعت على منحي الجائزة . الا ان السيد «فريتش» الذي كان تلميذه قد حاز على جائزة واحدة ، رأى اني سأحجب بذلك

مجد تلميذه، فهرع الى دار المحافظة، وكذلك فعلت السيدة «فاندور». وتدبرا الامر بحيث اعطاهما المحافظ الحق بقوله ان لجنة التحكيم لم يكن لها الحق في منح هذه الجائزة. واذ ذاك ثار ثائر اللجنة، وهمَّ اعضاؤها بتقديم استقالتهم. ولوكان رئيس اللجنة قد اطلع على سير الامور، لما جرت الاحداث على هذا المنوال، ولكان التقى المحافظ لهذا الغرض، كما صرح للسيد «ليفيك» . . . أجل، لقد حدثت ضجة لا تخطر ببالك، وسببها السيد «فريتش». لقد اساء التصرف، وساءت علاقته بالسيد «ديتريش». وحصلت ماركريت على جائزة ثانية بالبيانو، وهذا أمر يدعو للفخر!»

وهناك فراغ آخر أكبر في واجبها: اذ لم يرد فيه شيء يشير الى ماهو شعلة حياتها ونفس نفسها: محبتها ليسوع! ولكنها اذا لم تستطع ان تفعل ذلك في واجب مدرسي، فانها ستفعله بحرية في يومياتها الشعرية الخاصة. واليكم ما كتبته في هذه الابيات المعاصرة للواجب المذكور:

« يا يسوع، كم ان نفسي تغار عليك،
وابغي أن أكون قريبا عروسنك.
فمعك أريد أن أتألم،
وام أموت لكي أجدك.»

حضور المسيح في حياتها

أجل، ان حضورا سريا يرافقها من الآن. وما اقل الذين من ذويها يتحققون من ان حيويتها الغنية موجهة الى حياة اخرى في الداخل، وفي

اليزابيت في الثامنة عشرة من سنها

الخـــارج، ومـــا وراء هذين البعـــدين. فان الحنــين الى يسـوع، والى الكرمل، والى السماء، يملأ قلب هذه الشابة التي بلغت ما بين الخامسة عشـرة والسـادسـة عشـرة من عمـرها. وما ان بلغت السابعة عشرة حتى اكتشفت الآفاق الارضية التي تقتضيها هذه المحبة. فهي ترضى بحالتها الـواقعيـة وبكل ما يحزّ قلبها الشاب الذي تنعشه من الآن رغبة شديدة في تقدمة ذاتها لله. وقد كتبت:

«ان قلبي دوما معه
وهو يفكر ليل نهار دون انقطاع
في هذا الصديق السماوي والالهي،
ويود ان يبرهن له عن حنانه.
لذا يثور فيه هذا الشوق:
ليس الى الموت، بل الى التألم طويلا،
التألم لاجل الله، وبذل الحياة له
بالصلاة من أجل الخطأة المساكين»..

وكان على اليزابيت، بعد حصولها على الجائزة الاولى في البيانو، ان تذهب الى المعهد الموسيقي في باريس، بغية تكميل دراستها. الا انها ظلت في ديجـون، كما قلنـا، سنتـين أخـريـن لدراسـة علم انسجـام الاصــوات. وفي تلك الفـترة، تكـاثفت ايضـا الـدروس الخـاصـة في المعلومات العامة. ولكن اليزابيت كانت متأخرة جدا في هذا المضمار، ولم تأتِ الـدروس بجميـع النتـائج المرجوة. ولسنا مطلعين بكفاية على عدد هذه الـدروس، الا ان المـوسيقى تستمـر في احتـلال الموضع الاول. وفي

الثامنة عشرة، عكفت اليزابيت على دراسة اللغة الانكليزية، ومالت الى تلقي دروس الخياطة، لانها تحب الملابس الانيقة.

وكانت والدة اليزابيت قد شعرت بما يدور في خاطر ابنتها الكبرى من الاشواق والرغبات التي تتلاقى جميعها في رغبتها الشديدة في حياة الكرمل. وكانت الفتاة تتردد الى هذا الدير كلما تسنى لها الامر، وتستمد منه التأييد والتشجيع. الا ان الوالدة، بدافع تعلقها الشديد بابنتها البكر، منعتها من التردد الى الدير، محاولة بذلك توجيهها الى حياة اخرى...

لكن قلب اليزابيت قد تعلق بالكرمل، وهي تتوق بلهفة الى اليوم الذي فيه تنفتح امامها ابواب الدير لتعطي ذاتها ليسوع بكليتها. وريثما تتحقق لها هذه الامنية، شرعت تحيا حياة محبة صادقة ليسوع وللآخرين، وعرفت ان تبرهن عن قدرتها على الاسهام في حياة المجتمع بكل حماس وفرح...

الاسفار

كانت السيدة كاتز تحب الاسفار حبا جما، وقد اعتادتها مع أبيها وزوجها الضابطين اللذين كانا في تنقلات مستمرة. وقد بدأت اليزابيت، منذ الثامنة من عمرها، بالقيام باسفار طويلة في العطل الصيفية مع اختها وأمها. وغالبا ما تقودهن هذه الاسفار نحو الجنوب حيث كانت السيدة كاتز قد امضت سني صباها. فتقيم الفرقة الصغيرة أياما طويلة في سانت هيلير حيث كان الاب «انجلس» قد امضى خمس عشرة سنة في ادارة

الاب ايزيدور انجلس

تلك الخورنة، وفي كارليبا حيث تسكن الخالات رولاند. وأكثر من مرة امضت عائلة كاتز عطلتها في منطقة لورين وفي جورا وفي فوج . . .

وكثيرا ما تعبّر اليزابيت في رسائلها عن حماسها ودهشتها امام جمال الطبيعة والجبال والبحر، وتعبّر عن فرحها في اللقاء بصديقاتها وفي اللعب بالتنس والكروكي وفي الاشتراك في الحفلات الموسيقية. انها موضوع المحبة في كل مكان. وهناك شخص التقاها اياما معدودات وهو يوجز بعد ستين سنة تلك الذكريات الطيبة التي خلفها فيه هذا اللقاء ويقول: «انها (أي اليزابيت) كانت ذات حيوية زاخرة وسحر كبير، وكانت تشترك

بحماس في العاب عمرنا (. . .) . وكانت اليزابيت من الجاذبية بحيث لا يستطيع المرء ان ينساها . . . »

وليس ثمة صديقات حسب ، بل اصدقاء من الشباب ايضا . وكتاب «الذكريات» يتعمد الغموض في هذا الصدد ويكتفي بالقول :

« . . . ان مظاهرها الساحرة كانت تستقطب حولها الكثير من الاماني . . . »

ولنترك الحديث لاليزابيت لكي تروي لنا ما قامت به من الاسفار في هذه الفترة . فقد كتبت في رسائلها :

«اني لسعيدة ان اراك تمضين عطلة لذيذة . وانا كذلك ، اؤكد لك ذلك . لقد امضينا اياما في سانت هيلير ، وهو مركز رائع في المقاطعة التي فيها عاشت «ماما» حينما كانت في مثل عمري . فقد اقاموا لنا من الولائم ما سئمتْ منه مِعدُنا . . . وفي ليموكس يقام لنا الكثير من الحفلات . . . وههنا أمارس الموسيقى كثيرا . فان لصديقتي بيانو كبيرا يعجبني جدا ، اذ له اصوات رائعة ، وبودّي لو اقضي الساعات الطويلة في العزف عليه . وارافق ابنة عم غبريالة التي تجيد العزف على الكمان . وزوجها عازف بيانو ممتاز ، فنعزف بأيادينا الاربع .

« . . . في هذا الصباح ، نحن منشغلون كثيرا : فان الآنسة «لالاند» اقامت وليمة غداء كبيرة على شرفنا ، فنساعدها في اعمالها . وحياتنا في لونيفيل في غاية اللذة : فاننا نتناول طعام الفطور عند البعض ، وطعام الغداء عند الآخرين ، وطعام العشاء عند غيرهم ، بالاضافة الى لعب التنس مع فتيات هن في غاية اللطف . فليس لدينا دقيقة من الفراغ

ولا ندري اين نحن . . .

« في ١٤ تموز، شاهدنا استعراضا رائعا في ساحة مارس . وقد يتعذر عليك ان تتصوري تلك الكتيبة من الفرسان بخوذها ودروعها المتلألئة في اشعة الشمس . وفي المساء ذهبنا الى الغابة ، وكانت نزهة خلابة واجمل من حديقة المتنزه . وكانت التنويرات جميلة جدا حتى خيّل لنا وكأننا في مدينة البندقية . . .

« ان الجميع يدللوننا . وهنا صديقة قديمة لجدتي ، وهي السيدة «دي لاروك» ، اعطتنا خواتم ذهبية جميلة جدا ومرصعة بالفيروز (. . .) ارسل اليك بسيل من القبلات . . .

«لم تكن اقامتنا سوى سلسلة من المباهج : فتتابعت الاضاحي الراقصة والاضاحي الموسيقية والالعاب في الحقل . ان مجتمع «تارب» لطيف الى الغاية . فقد التقيت فتيات كثيرات كلهن رائعات في اللطف . وتأثرنا كثيرا بما حظينا به من حسن الاستقبال ، وسنحتفظ بذكرى لذيذة عن تارب (. . .) . ان لأسرة «دي روستان» عمة هي السيدة دي سان ميشيل ، امضت بضعة ايام في تارب مع ابنتها اللطيفة التي هي في ربيعها العشرين وتحسن الموسيقى . فلم نكن نغادر البيانو، ولم تكن مخازن تارب كافية لتزويدنا بأوراق الموسيقى .

«غادرنا تارب ووصلنا الى «لورد» ، وهي زاوية من السماء ، امضينا فيها ثلاثة ايام تفوق في عذوبتها كل موضع سواها . وفكرت فيك عند المغارة . آه! لو تعلمين اللحظات الطيبة التي يمضيها المرء هناك ، والتأثير الذي تخلفه النفس . لم تكن ثمة زيارات جماعية كبيرة ، واستطعنا التناول

اليزابيت ومارگريت

في المغارة. وكم احب لورد وهي في مثل هذا الهدوء. ومن لورد ذهبنا الى «بــو» لزيــارة قصــر هنــري الــرابــع الــذي يستحق المشــاهــدة لما فيــه من الفروشات المدهشة. ولم نكن نحن الوحيدين في ابداء الدهشة فيها. وفي العشية، كنا في «كوتري». وما اجمل هذا الطريق بالعربة من «بيرفيت»! فكنــا في انخطــاف صامت امــام تلك الجبال الرائعة التي أخذت بمجامع فؤادي، وكــان بودّي الا اغــادرها ابدا. الا ان «لوشون» كانت تحتفظ لنا بما هو اجمل بكثير. واني اعتبر هذا الموضع موقعا لا مثيل له...

«في مارسيليــا، زرنــا ايضــا باخرة عابرة المحيطات، وقد نالت مني كل الاعجاب. أما والدتي فقد استحوذ عليها الهلع، لان الباخرة كانت في عرض البحــر، وكــان قاربنــا الصغير يتعرض الى الكثير من الخضات للوصول اليها. وكانت سعيدة جدا بعودتها الى اليابسة، لانها لا تشاركني حماسي للبحر الذي احبه حبا جما.

وممــا اثــار فيّ المــزيــد من الــدهشــة والاعجــاب هو دير الكرتوزيين الكبــير. لو كنت تعــرفــين ما اجمــل تلك الطــريق الخالية، وما اروع تلك الجبــال المكســوة بالاشجــار والخضــار... انهــا اعمق عزلــة يحلم بها الانســان، حتى ليخيــل له انــه على بعد مائة ميل من العالم، لضياعه في تلك الجبال التي لها مظهر وحشة مفرطة. وامضينا الليلة في دير الراهبات ازاء ديــر الــرهبــان الكــرتــوزيين، في صومعة صغيرة، وعلى أسرة خشنة جدا، لان الامــاتــة تسود في ديــر الكــرتــوزيــين الكبــير. وانحــدرنا الى «غرنوبل» بطريق «سابي» الرائعة هي ايضا. كما اننا ذهبنا ايضا الى جنيف...»

ولكننـا في اشعـارها نقرأ الوجه الآخر من حياتها، الجانب الداخلي من كيانها. فهذا مثلا ما كتبته في مقطوعة شعرية نظمتها يوم العنصرة سنة ١٨٩٨:

تنازلْ أيها الروح وأضرم نفسي
بلهبك المحرقة الصافية،
أحرقها بالحب الالهي
انت الذي ادعوك كل يوم.

يا روح الله، النور المشع
انت الذي تفعمني بانعاماتك
انت الذي تغمرني بعذوبتك
أحرقني والتهمني بكليتي.

انت الذي تمنحني دعوتي
آه، قدني اذن الى هذا الاتحاد
الحميم والداخلي، والى هذه الحياة
التي كلها في الله الذي هو غاية شوقي.

ليرتكز رجائي على يسوع وحده
وبينما انا عائشة وسط العالم
اجعلني لا ابغي ولا أرى سواه
هو حبي وصديقي الالهي.

أيها الروح القدس، يا جودة وجمالا فائقا

أنت الذي اسجد له ، انت الذي احبه
أحرق بلهبك الالهية
هذا الجسد وهذا القلب وهذه النفس
هذه عروس الثالوث
التي لاتتوق الا الى ارادته .

★★★

اليزابت ومارگريت مع صديقتين أخريين

وتطلعنا مذكرات اليزابيت على استعداداتها الروحية والنفسية لدى بلوغها ربيعها التاسع عشر، وعلى محبتها للمسيح ولمريم وللنفوس. وقد ساهمت حملة الصلاة الكبيرة التي جرت في ديجون سنة ١٨٩٩ في اذكاء الحرارة الرسولية في قلبها تجاه النفوس:

«سرني اليوم ان اقدم ليسوع تضحيات عديدة تتعلق بنقيصتي المتملكة فيّ. وكم انها كلّفتني! انما انا بذلك اعترف بضعفي. ويبدو لي حينما اتلقى ملاحظة غير عادلة ان دمي يغلي في شراييني وان كياني كله يثور. . . الا ان يسوع كان معي، وكنت اسمع صوته في اعماق قلبي، لذا كنت مستعدة لاحتمال كل شيء لاجل محبته. . .»

«في كل من اعياد مريم، اجدد تخصيص ذاتي لهذه الام الحنون. فاليوم سلمت نفسي اليها وارتميت من جديد بين ذراعيها، وبثقة تامة استودعتها مستقبلي ودعوتي. آه، بما ان يسوع ما يزال لا يريدني الآن، فلتكن مشيئته، ولكن عليّ ان اقدس نفسي في العالم: فلا يمنعني شيء من الذهاب اليه، ولا تشغلني اباطيل الارض، ولا اتعلق بها. انني عروس يسوع، وقد اتحدنا بنوع حميم. فلا شيء يستطيع ان يفصلنا. آه! عليّ ان اظهر دوما جديرة بعريسي الحبيب، والا ابذّر جميع النعم التي استودعنيها، وان اسعد بان ابرهن له عن محبتي.

سيكون عندنا حملة صلاة كبيرة في نهاية الصوم الخمسيني. واني من الآن اصلي لاجل نجاح هذه الحملة. آه! ما اشد شوقي الى ارجاع النفوس الى يسوعي! واني لاعطي حياتي في سبيل المساهمة في افتداء احدى هذه النفوس التي احبها يسوع حبا جما. آه! كم أود ان اعرفه

واجعله محبوبا في الارض كلها.

«آه! ما اعذب الايام الثلاثة التي امضيتها! كنت في المساء اقوم بنصف ساعة من السجود امام القربان الاقدس قبل صلاة الفرض في الساعة الثامنة. من يستطيع ان يصف هذه المناجاة قلبا الى قلب. ويعتقد المرء خلالها انه لم يعد عائشا على الارض، وانه لايرى ولا يسمع سوى الله. الله الذي يتحدث الى النفس، الله الذي يقول لها امورا عذبة الى الغاية، الله الذي يطلب منها ان تتألم. فيسوع يشتاق الى قليل من المحبة لتعزيته... (...) اني اريد ان احبه عوض جميع الذين لا يحبونه، وأريد ايضا ان اعيد اليه هذه النفوس التي احبها الى هذا الحد...

«اني الآن أقرأ كتاب القديسة تريزة (الكبيرة) الذي عنوانه: «طريق الكمال». انه كتاب يعجبني جدا واستفيد منه كثيرا. فما ابدع الاشياء التي تقولها الام تريزة عن الصلاة الصامتة وعن الاماتة الداخلية التي اريد الوصول اليها بعون الله! وبما اني لا استطيع الآن ان افرض على ذاتي آلاماً كبيرة، فبوسعي على الاقل ان اضحي بارادتي في كل لحظة من النهار...

«كم احب الطريقة التي بها تعالج القديسة تريزة موضوع الصلاة الصامتة، وهي تتكلم عن المشاهدة، أي عن هذه الدرجة من الصلاة الصامتة التي فيها يعمل الله كل شيء ونحن لا نعمل شيئا، وحيث يتحد نفسنا به الى حد من العمق بحيث اننا لسنا نحن الذين نحيا، بل الله هو الذي يحيا فينا، الخ... آه! اني تعرفت ثمة الى لحظات الانخطاف

السامية التي تنازل المعلم فرفعني اليها غالبا خلال هذه الرياضة، وما زال يفعل ذلك . . .

«واذ اني لا استطيع ان افرض آلاما على ذاتي، عليّ ان اقتنع بان هذا الالم المادي والجسدي ليس سوى وسيلة، وسيلة ممتازة، للبلوغ الى الاماتة الداخلية والى التجرد التام عن الذات. يا يسوع، يا حياتي وحبي وعريسي، ساعدني، اذ لابد لي من البلوغ الى هذا الهدف . . .

«يا الهي، انت تعلم اني اذا أتألم، واذا اشتاق هذا الشوق كله الى التألم، فليس لكوني افكر في ابديتي، بل لكي اعزيك فقط، ولكي أعيد اليك نفوسا برهانا عن حبي لك. فاني قد وهبتك قلبي الذي لا يفكر ولا يحيا الا لاجلك، والذي يحبك الى حد الموت . . .

«ما اشد حبي لك! ان قلبي يضطرم بمحبتك الى حد اني لا استطيع ان احيا هادئة وسعيدة في حين انك انت عريسي الحبيب تتألم. فكل ما اصبو اليه هو انِ اشاطرك آلامك واخفّفها، وان احمل صليبا ثقيلا جدا وراءك. لاني احبك، انت حياتي، أجل اني احبك حتى الموت. آه! انك جرحت قلبي بسهام حبك، فلا يستطيع من بعد ان يكون سعيدا ههنا. انت وحدك قادر ان توليه السعادة حينما يقاسمك آلامك. آه! شكرا يا يسوع، شكرا . . .»

وجه اليزابيت الحقيقي

ان الطابع الذي يتجلى في حياة اليزابيت هو الاستقامة. لقد قال يسوع: «كونوا حكماء كالحيات وودعاء كالحمام» (متى ١٠/١٦). وقد تجلت هذه الحكمة أو الفطنة لدى اليزابيت في تلك الرقة الفائقة تجاه

الآخـرين، وفي حسن ذوقهـا وفي خدمتها المتفانية. أما الفطنة تجاه ذاتها، فلا نجـد لها اثـرا عنـدها. فهي لا توفر على نفسها جهودا. وما يثير اشد اشمئزازها هي الانانية عامة وفي جميع اشكالها.

أمـا الصفـاء عنـدهـا، فحـدّث عنه ولا حرج. واذا كانت عندها وداعـة الحـمام، فهي ايضا كالظبية اللاهثة واحيانا كاللبوءة الهائجة. فانها تقـول: «اجـل يا يسوع، اني اغار على محبتك، وأنا احبك الى حد اظن احيـانـا اني سأمـوت بهذا الحب...» انها لا تبخل بذاتها لضمان خلاص الآخرين: «اني بحاجة الى النفوس، مهما كان الثمن اليما. فحياتي كلها ستكون تعويضا، وانا مستعدة لكي احتمل كل الم». ذلك لان اليزابيت تحب محبة جذرية.

لقـد جرح يسـوع قلبهـا وهي ما زالت في الثـامنة عشرة من سنها. وبمقدار ما تحب المغرمةُ فيها ان تعطي ذاتها، بمقدار ذلك تحب الفنانةُ أو بالاحرى المشاهِدةُ ان تنذهل أمام جمال يسوع المدهش. لقد شرع يسوع في وقت مبكر يوقظ قوى التعجب الكبيرة الكامنة في اعماقها.

ان القـديسـين يحتفظـون مثلنـا بطبعهم، ويجتـازون مراحل الحياة كلها على غرار ابناء عصرهم. الا انهم يعرفون ان يوجهوا كل شيء الى الضروري الاوحد. ففي عصر كان فيه الاحساس ضاربا اطنابه، عرفت اليـزابيت ان ترفق شعـورهـا الـديني بارادة من حديـد وبعـزم مكين على المضي حتى النهـايـة نحو الهدف المتوخى، وعلى التضحية بكل شيء في سبيـل تحقيق مقتضيـاتـه. واحسـاس اليـزابيت المرهف هو لها مصدر الم دائم. واننا نستشف ذلك من خلال يومياتها. فهي تريد الدخول الى دير

الكرمليات، الا ان والدتها تجابهها بالرفض القاطع. وكم تألمت من موقف والدتها المتصلب. فان اليزابيت تفكر في اعطاء ذاتها لله منذ اربع سنين، الا ان حب التملّك عند والدتها يقوم حائلا دون تحقيق رغبتها الملحّة.

دعوة ناضجة

قابلت اليزابيت رفضَ والدتها بالصبر الجميل، واستمرت على العيش في العالم دون ان تبدي شيئا من غمها، بل لقد ازداد شوقها الى الله صفاء في بوتقة الآلام.

وفي ٢٦ اذار سنة ١٨٩٩، خلال حملة الصلاة الكبيرة التي اقيمت في مدينة ديجون، رضيت السيدة كاتز أخيرا بدخول ابنتها الى دير الكرمل، على أن يتم ذلك بعد سنتين... وبعد خمسة ايام، اذا بالسيدة كاتز تأتي، يوم الجمعة العظيمة بالذات، وقد بلغ منها التأثر كل مبلغ، وتكلم ابنتها عن «نصيب رائع». ولكن اليزابيت تؤكد عزمها على البقاء بكليتها مُلكا ليسوع. واليزابيت نفسها تروي لنا ذلك وتقول:

«في هذا الصباح، عادت والدتي متأخرة جدا وعلى محياها علامات اضطراب شديد... فقد كلموها عن زواج لي، وهو نصيب ممتاز لن اجد له مثيلا ابدا. فراحت والتقت الخوري ليرشدها الى ما يترتب عليها فعله، بما انه هو الذي يعرفني احسن من أي شخص آخر. فأجاب والدتي حول ضرورة مفاتحتي بهذا الزواج واظهار ما فيه من المنافع، وانه سيكون اختبارا لي يدعوني الى التفكير. واضاف الخوري انه لا يستطيع البتّ في دعوتي، ولكنه طلب الا تجري اية مقابلة دون اخباري بها مسبقا.

«اني لم اكن اتوقع هذا الامر قط. ولكني بقيت غير مبالية بهذا العرض المغري. آه! ان قلبي ليس حرا، لاني قد وهبته ملك الملوك، ولا يسعني التصرف به بعد الآن. آه! اني اسمع صوت حبيبي في اعماق قلبي قائلا لي: «يا عروسي، اترفضين اذن سعادة ارضية وتتبعيني؟ انك في اثري ستجتازين بالالم والصليب، وعليك ان تقاسي آلاما كثيرة. ولو لم اكن ثمة لاسندك، لما استطعت الى احتمالها سبيلا. وحتى هذه التعزيات الروحية العذبة للنفس سترُفع عنك. يا حبيبتي، ما اكثر المحن التي تنهال على من يريد السير في اثري. ولكن ما اكثر ايضا الافراح والعذوبات التي اذيقها اياك في هذه الشدائد. ان النصيب الذي اخترته لك هو النصيب الاجمل. فلابد اني احبك محبة عظيمة حتى اني احتفظت به لك، يا حبيبتي. اتشعرين بمحبة كافية ليسوعك؟ اترضين بهذه الآلام؟ اتريدين ان تعزيني؟ آه! احفظي لي قلبك.»

- اجل، يا حبيبي وحياتي، يا عريسي الحبيب والمسجود، أجل، كن مطمئنا. فاني مستعدة لاتبعك في طريق التضحية هذه. آه! انك تريد ان تريني جميع الاشواك التي سألاقيها. يا يسوع الحلو، اننا سنجتازها سوية. فاني معك وفي اثرك سأكون قوية. اشكرك على انك اخترت خليقة صغيرة ومسكينة مثلي لكي اعزيك. كنت تعلم اني لن اخذلك، والا كنتُ شرا من اولئك التعساء الذين صلبوك قبل عشرين قرنا. ايها الحب السامي، انا لك بكليتي. فاسندني فقط، لاني بدونك قادرة على جميع الخسائس والجرائم...

«ان ما يؤلمني هو ان اسبب الحزن لوالدتي الحبيبة. آه. انها مدهشة! انها اعجوبة مريم! فانها لا تحاول حتى التأثير فيّ. وحينما قالت لي ان افكر في الامر، قلت لها ان جوابي سيكون بعد ثمانية ايام مثله اليوم. ولكن اذا راق الامر في عينيها، فاني راضية بألا تجاوب الآن... انها الآن تفهمني... فقد قالت لي: «لكان من شأن هذا الامر ان يوليني الراحة، ولكن الله اراد غير ذلك».

وفي ذلك اليوم ذاته، أكدت اليزابيت عزمها على البقاء بكليتها ليسوع وحده، من خلال ابيات شعر كتبتها:

عند اقدام صليبك، يا حبيبي
يا يسوع، حبي المصلوب
آتي لاكرر لك ان تأخذ قلبي
دون ان تعيده اليّ ابدا.

ايها العريس السماوي والمخلص الالهي
اني اتخلى عن كل سعادة
وعن كل قران على هذه الارض
لكي أكون مُلكاً لك بكليتي.

أريد أن أكون لك دون انقسام
لكي ازداد حبا بك
ولكي اكافئك على حبك.
اني اهب لك ذاتي الى الابد
يا عريسي ويا خيري الاسمى

انت وحدك تعلم كم اني احبك .

الا ان الـوالـدة لم تكن راضية بموقف ابنتها ، ومنعتها من الذهاب الى دير الكرمل ومن التحدث الى الاخوات البوابات والى الام الرئيسة . وكـانت تلك فرصـة جميلة لاليـزابيت لتمارس الطاعة ، على غرار جاراتها الكـرمليـات ، وان لم تبرز مثلهن نذر الطـاعـة . . . وبعـد مدة ، رفعت السيـدة كاتـز عن ابنتها هذا الحذر ، فاستطاعت اليزابيت ان تطلب قبولها في الكرمل في حزيران سنة ١٨٩٩ . الا انها ما زالت تواجه رفض والدتها وترددها ازاء صحة ابنتها الواهية وبالنظر الى الصرامة التي تقتضيها الحياة الـرهبـانيـة في الكـرمل ، بالاضافة الى حالة الوالدة الصحية المتردية التي املت على اليـزابيت واجب البقـاء بقـربهـا . ورأت اليـزابيت في هذه الظـروف ارادة الله الـواقعيـة ، ورضيت بتكميلهـا حتى اذا خالفت ميلها الى الانخراط في الحياة الرهبانية . فهي الآن تعيش في استسلام كلي الى ارادة الله ، دون ان تبـدي ايـة كراهيـة . انها تعيش في العالم كشابة علمانية مثالية ، ريثما يتسنى لها تحقيق اشواقها .

وفي هذه الفترة ، كتبت اليزابيت الى دير الكرمل تقول :

« ان الاستسـلام ، يا سيـدتي الحبيبـة ، هو الـذي يعطينـا الله . ما زلتُ حديثة السن ، ولكن يبدو لي اني قد تألمت احيانا . فاذ كان كل شيء يزداد تعقدا ، وكان الالم يتخلل الحاضر ، ويظهر لي المستقبل اكثر ظلاما ، كنت اغمض عيني واستسلم مثل طفل بين ذراعي هذا الآب الذي هو في السماء » .

في صميم الحياة

سارت الحياة في العائلة الصغيرة سيرها المعتاد، واستمرت اليزابيت على القيام بالاسفار وعلى اللقاء باصدقائها وصديقاتها في ديجون وفي الاماكن الاخرى. انها انيقة في مظهرها، حتى انها تسترعي الالتفات في الاجتماعات والسهرات الراقصة حيث تجري اللقاءات الكثيرة مع مختلف الفئات من المجتمع. وسيفخر المونسنيور براون، مطران مونبليه المستقبل، بكونه قد راقص خادمة الله في عهد شبابه. اما الشباب النبهاء، فكانوا يتبادلون الهمسات فيما بينهم: «ان هذه ليست لنا.. لاحظوا نظرتها!»

أجل، ان اليزابيت تحيا في صميم الواقع، ولكنها تشع محبة الله حولها. وخلال احدى الامسيات الراقصة، قالت لها احدى السيدات بغتة: «اليزابيت، انك ترين الله! ...» فكيانها كله متجه نحوه. وحينما امتدحها شارل هالو، وهو اخو ماري - لويزة، على مواهبها العالية، اجابته بنبرة التأفف «شارل، انك تزعجني».

ان ما يثير حماسها هو يسوع وان تقاسمه افراحه وشدائده، وان تكون بالقرب منه، وان تمنحه كل شيء. واذا هي لا تعيش الآن في حضوره في الكرمل، فانها تعمّق «صومعتها» على غرار القديسة كاترينة السيانية وتقول:

«. . . أعطني عزلة القلب، لكي أحيا في اتحاد صميم معك، فلا يستطيع شيء، أي شيء، ان يلهيني عنك، فتكون حياتي صلاة صامتة متواصلة . . . انت تعلم، يا معلمي الحبيب، ما هي تعزيتي حينما احضر في هذه الاجتماعات والاعياد: انما تعزيتي هي ان اختلي معك وانعم بحضورك، لاني اشعر بحضورك الفعال فيّ، يا خيري الاسمى! ان الناس في هذه الاجتماعات لا يفكرون فيك كثيرا، ويبدو لي انك سعيد بأن يكون ثمة قلب لا ينساك، حتى وان كان قلبا فقيرا وبائسا مثل قلبي . . .».

«اجعلني احيا في العالم دون أن أكون من العالم: استطيع ان اكون كرملية في داخلي وأريد ذلك (. . .) يا يسوعي، اني لقد اعطيتك كل شيء منذ عهد بعيد، واجدد اليوم هذه التقدمة. فأنا ضحيتك الصغيرة. آه! فلتضمحل اليزابيت، لكي لا يبقىٰ سوى يسوعها.

«يا يسوع حبيبي! ما اعذب للانسان ان يحبك وان يكون لك، وان تكون له الكل الاوحد. والآن اذ تأتي كل يوم الى قلبي، اجعل اتحادنا أكثر عمقا. لتكن حياتي صلاة صامتة ومتواصلة وفعل محبة مستديما. لا يكن ثمة ما يشغلني عنك، لا الضوضاء ولا الطياشات، لاشيء. كم كنت احب، يا معلمي، ان اعيش معك في الصمت. الا ان ما ابغيه فوق كل شيء هو تكميل ارادتك. وبما انك ما زلت تريدني في العالم، فاني اخضع من كل قلبي محبة بك. اني اقدم لك صومعة قلبي، لتكن لك «بيت عنيا» صغيرة. تعال واسترح فيها، فانني احبك حبا جما. بودي ان اعزيك، واقدم لك ذاتي كضحية لك ومعك، يا

معلمي . واني ارضى مسبقــا بجميـع التضحيـات والمحن ، حتى بان لا اشعـر بحضـورك معي . ولا أسألـك سوى شيء واحد : ان اكون سخية وامينـة دومـا ، دومـا . . . اريـد ان اكمل ارادتك بالتمام ، وان أتجاوب مع نعمتك على الدوام . ارغب في ان اكون قديسة معك ولك . ولكني اشعر بعجزي . فكن انت قداستي . واذا تراجعت ، فاني اناشدك واتوسل اليك أن تأخـذني وتميتني بينـما انـا لك بكليتي . . . يا معلمي ، اني لست ابحث عن العطايا والتعزيات التي تغمرني بها ، بل عنك انت وحدك . فاسندني دومـا واستحـوذ عليّ اكثـر فأكثـر . وليكن كل شيء فيّ مُلكـا لك . فحطم وانتزع كل ما لا يرضيك فيّ ، لاكون لك بكليتي . آه! كل نبضة من قلبي هي فعل محبة . فيا يسوعي ويا الهي ما الذّ ان احبك وان أكون لك بكليتي . »

ان كلمة «التضحية» التي استخدمتها اليزابيت ههنا انما هي مدينة بها لتر يـزة الصغـيرة . ففي سنة ١٨٩٩ ، كانت اليزابيت من الاشخاص الاوائـل الـذين غزتهم «اخبـار نفس» : فقـد ساعدتها تريزة الطفل يسوع على التخلص مما كان قد تبقى فيهـا من رواسب الجـانسينية في مفاهيمها عن الله . ولكن قبل كل شيء ، كانت خبرتها التصوفية عن محبة الله التي تغمر قلبها انجع دواء ضد مخاوفها . فان اليزابيت ، قبل دخولها الكرمل ، تمنح الله هذا اللقب الذي سيبقى حبيبا على قلبها : الله الذي «كله محبة» .

. . . الى الكرمل

خلال صيف ١٩٠٠ ، التـقـت اليـزابيت للمـرة الاولى الاب

«فاليه»، رئيس دير الدومنيكان في ديجون، وكان واعظا ذا حظوة لدى الكرمل. ودار بينهما حديث طويل. وستلتقي اليزابيت هذا الاب مرات اخرى عديدة قبل دخولها الدير، وتلقى منه كل التشجيع للايمان بالله الذي «كله محبة» والذي يسكن اعماقها، وهي تشعر بذلك ايما شعور. فأولاها الراهب جناحين لكي تواصل سعيها الحثيث. انه، والحق يقال، لم يكشف لها حقيقة سكنى الله في نفسها، اذ كانت تحيا هذه الحقيقة منذ زمان، ولكنه من المؤكد انها قد اغتنت بما قاله لها الاب فاليه عن المحبة التي لا يكنّها لها يسوع وحده، بل الآب والكلمة والروح القدس معا. لاشك انها نهلت من هذه الاقوال، هي التي كتبت قبل هذا العهد بسنتين، اي في عيد العنصرة سنة ١٨٩٨، في حديثها عن الروح القدس الذي تستدعيه كل يوم والذي منه تنتظر تفتّح اشواقها جميعها، تلك الابيات الشعرية التي ذكرناها آنفاً.

... وكانت اليزابيت تحلم بان تتخذ قريبا في الكرمل اسم «اليزابيت يسوع». الا انها ضحت برغبتها هذه وقبلت الاسم الذي اقترحته الرئيسة وهو «اليزابيت الثالوث».

وداعا ايها العالم

بلغت اليزابيت الآن عامها العشرين. وخلال صيف سنة ١٩٠٠، ستودّع «عروس الثالوث» العالم مدة ثلاثة اشهر امضتها في الاسفار الى مختلف المناطق في فرنسا، وزارت خلالها لورد وتارب، وتمتعت بمشاهدة المحيط الذي استهواها بعظمته وحداها الى التأمل في عظمة الله اللا متناهية. ثم اجتازت بباريس وزارت كنائسها الفخمة،

ولاسيما كاتدرائية سيدة الانتصارات وكنيسة القلب الاقدس في مونمارتر.

ولدى عودتها الى ديجون، استؤنفت اللقاءات والامسيات. ولكن اليزابيت عكفت ايضا على ممارسة الرسالة في خورنتي القديس ميخائيل والقديس بطرس حيث اخذت تهتم بأطفال عمال مصنع التبوغ، وتلقي دروس التعليم المسيحي على الاولاد الذين يتهيأون للمناولة الاولى، وتقوم بزيارات الى ذويهم والى المرضى، وتشارك في جوقة الالحان في الكنيسة...

الا ان والدة اليزابيت ما زالت متذبذبة بشأن دعوة ابنتها. فهي تارة تسمح لها، وطورا تتراجع مستعظمة تضحية الافتراق عن ابنتها الحبيبة. وكانت تلك محنة قاسية على قلب الفتاة التي لا ترضى بانصاف الحلول وتريد اعطاء ذاتها كلها للرب وفي اسرع وقت. فكل مماطلة تجرح قلبها الرقيق. ولكنها تبقى مستسلمة وخاضعة ومنتظرة تحقيق ارادة الرب.

... ومرت الشهور واقتربت اليزابيت من سنتها الحادية والعشرين، وبدا لها الدخول الى الدير وشيكا. الا ان نفس اليزابيت تجتاز الآن بمحنة قاسية. انها تعاني من الظلمة في بحثها عن الله، وهي تعبّر عن ألمها العميق في يومياتها. بيد ان هذه الظلمة لم تفلح في انتزاعها من الله ولا في تبديل رغبتها في العطاء التام له من خلال الرهبانية الكرملية، بل زادتها ثقة بعمل الله الخفي والمطهّر في نفسها، وزادتها استسلاما الى ارادته القدوسة.

أما في الخارج، فاستمرت اليزابيت على بشاشتها المعهودة وعلى روحها المرحة. فهمها الوحيد ان تشع المسيح في محيطها من خلال جميع

لقاءاتها وعلاقاتها بمختلف فئات المجتمع.

وفي حزيران سنة ١٩٠١، انتابها التهاب في غشاء المفاصل لا بد انه كان ناتجا من الساعات الطويلة التي كانت تمضيها راكعة في الصلاة الصامتة.

واقترب اليوم الذي كانت اليزابيت تنتظره بلهفة وبشيء من الحزن على والدتها. وكتبت الى الاب انجلس تقول:

«لم يبق سوى شهر. وهذه اللحظات الاخيرة هي بمثابة نزاع للوالدة المسكينة. صلِّ لاجلها. اني اسلم الله كل شيء.. ما احلى الاستسلام، لاسيما حينما نعرف ذاك الذي نستسلم اليه. وداعا ايها الاب. اني ارسل لك صورتي. وحينما سُحبت كنتُ افكر في الله. فهي اذن تحمله اليك. وحينما تنظر اليها، صلِّ لاجلي، لاني حقا احتاج الى الصلاة.»

وسيذكر الاب أنجلس بعد ذلك «المحبتين» اللتين مثل خشبة عمودية واخرى افقية تشكلان صليبا في قلب اليزابيت: «محبة الله ومحبة امها التي كانت تعزّها الى حد كبير». وهي تقول:

«عزيزتيَّ المسكينتين اللتين اصلبهما»، مشيرة بذلك الى والدتها والى اختها ماركريت. وتقول ايضا: «ان الرب منحني قلبا رقيقا جدا وامينا».

الا ان اليزابيت لا تتراجع أمام أكبر التضحيات، حينما يدعوها الحب الاسمى الى ذلك. ورئيسة الكرمل تعرف قيمة طالبتها الشابة، لذا فانها قررت أن تأخذها معها لتأسيس دير كرمل جديد في بلدة «باري -

لو ـ مونيال» . وكانت حقائب اليزابيت قد وصلت الى تلك البلدة ، حينما عدلت الرئيسة عن رأيها ، وقررت قبولها في دير ديجون ذاته .

وجاءت الساعات الحاسمة والليلة الاخيرة التي قضتها بين ذويها . وكانت ساعات مثقلة بالالم لدنوّ الفراق الحاسم . الا ان الثاني من آب سنة ١٩٠١ حمل الى اليزابيت سلاما عميقا وفرحا غامرا ، اذ تستطيع الآن ان تقول «نعم» ليسوع الذي يريدها في الكرمل . وكتبت صباح ذلك اليوم نفسه الى الاب انجلس تقول :

«اننا سنتناول في قداس الساعة الثامنة ، وبعد ذلك ، حينما يكون (يسوع) في قلبي ، ستقودني والدتي الى باب حصن الدير. اني احب والدتي اكثر من أي وقت آخر. وفي الوقت الذي يترتب عليّ فيه ان انجز التضحية التي ستفصلني عن هذين الكائنين العزيزين اللذين اختارهما الله لي على هذه الجودة ، لو تدري ما هو السلام الذي يغمر نفسي . كأني من الآن لا اعيش على الارض . واشعر بأني له بكليتي ولا احتفظ بشيء لذاتي ، بل ارتمي بين ذراعيه مثل طفل صغير . »

الفصل الثاني

في دير الكرمل

الراغبة

بدأت اليزابيت حياتها الكرملية في دير ديجون بحماس منقطع النظير وبعطاء لا تراجعَ فيه. وعبرت عن فرحها في كلمات وجيزة كتبتها في مطلع حياتها الرهبانية:

«ما اطيب العيش على جبل الكرمل! لقد تركتُ كل شيء لكي استطيع الصعود اليه. الا ان يسوعي جاء الى ملاقاتي، وأخذني بين ذراعيه لكي يحملني مثل طفل صغير، ولكي يقوم مقام جميع الذين تركتهم في سبيله.»

وبعد دخول اليزابيت الى كرمل ديجون بأيام قليلة، حينما ارسل هذا الكرمل بعض التصاوير الى دير ليزيو، كتبت احدى كرمليات ديجون هذه العبارة النبوية المذهلة: «... لدينا راغبة دخلت عندنا منذ ثلاثة ايام، ولكنها تشتاق الى الكرمل منذ سنها السابعة، وهي الاخت اليزابيت الثالوث. انها ستصبح قديسة، لان لها من الآن استعدادات رائعة». أجل، ان اليزابيت تثير الاعجاب بفضائلها، ولا سيما باختلائها.

دير الكرمل

كانت غرفتها (قلايتها) ـ شأن سائر غرف الراهبات ـ بغير تدفئة ولا ماء جار ولا كهرباء، وهي تطل على البستان حيث يرتفع وسط الخضار صليب كبير دون مصلوب . وأجنحة الدير الثلاثة تتيح دخول اشعة الشمس اليها من جهتها الجنوبية الغربية . ومن فوق الرواق الذي يتكون من اقواس على الطراز الغوطي الجديد، تستطيع اليزابيت ان ترى اشجار احد البساتين الثلاثة التي تحيط بالدير الواسع . واخبارها الاولى

غرفة اليزابيت في دير الكرمل

تولي الطمأنينة وتنمّ عن سعادتها العميقة . فقد كتبت الى والدتها:

«ان صحتي على خير ما يرام، وقد عادت اليّ شهيتي كالسابق ويعجبني طعام الكرمل. وقالت لي «أليس» انك تودين ان اشرب قليلا من الخمر، افلا تتذكرين اني لا استطيع تحمل الخمر؟ اني ارقد على سرير من القش مثل طوباوية، الامر الذي لم يحدث لي منذ مدة طويلة . في الليلة الاولى، كنت اخشى السقوط من السرير. . .»

رواق دير الكرمل

وكتبت ايضا :

«انه (أي يسوع) في كل مكان. نحياه ونستنشقه. لو كنت تعرفين كم اني سعيدة، وكم ان افقي يزداد اتساعا كل يوم!»

«اني لا اجد تعبيرا وافيا لوصف سعادتي، وكل يوم ازداد لها تقييما. لاشيء ههنا سواه. انه الكل، وهو يكفي، ومنه وحده نحيا. اننا نجده في كل مكان، في الغسيل كما في الصلاة الصامتة. أحبُّ الساعات اليّ هي ساعات الصمت العميق. واني اكتب اليك في احدى هذه الساعات. تصوّري ابنتك اليزابيت في غرفتها الصغيرة العزيزة عليها جدا: انه مقدسنا، ولا شيء فيه الا له ولي، وفكّري في الساعات العذبة التي امضيها فيه مع حبيبي».

«كل احد يُعرض لنا القربان في المصلى. وحينما افتح الباب وأتأمل السجين الالهي الذي جعلني سجينة في هذا الكرمل الحبيب، يبدو لي وكأن باب السماء ينفتح امامي. واذ ذاك اضع أمام يسوع جميع الذين هم في قلبي، وهناك بالقرب منه اجدهم (...). اني غير آسفة على سنوات الانتظار الطويلة، فان سعادتي من العظمة بحيث كان يجب شراؤها بهذا الثمن. آه! ما اعذب الله!»

بعد مدة وجيزة، غادر دير ديجون نحوُ عشر من الراهبات وذهبن الى «باري ـ لو ـ مونيال» لتأسيس دير كرمل جديد هناك. وجرت انتخابات في دير ديجون اسفرت عن اختيار رئيسات حديثات لادارة الدير. فتمّ انتخاب الاخت جيرمين رئيسة وعمرها احدى وثلاثون سنة، والاخت ماري الثالوث نائبة للرئيسة وعمرها ستة وعشرون عاما،

اليزابيت الراغبة

وكلتاهما من ديجون ذاتها. وكانت مدة الراغبية آنذاك تدوم بضعة اشهر، تليهـا فترة الابتـداء سنـة كاملة. وتظل الناذرة الحديثة ثلاث سنين في دار الابتـداء، ثم تبرز نذورهـا المؤ بدة. وفي دار الابتداء، وجدت اليزابيت مبتدئين اخريين شابتين. أما الام جيرمين، الرئيسة الجديدة، فقد جمعت الى مهام الرئاسة مهمة الاهتمام بالمبتدئات ايضا.

المبتدئة

في ٨ كانـون الاول سنـة ١٩٠١، بعـد فترة لا تتعدى اربعة اشهر من الحياة الكرملية، صوتت الجماعة كلها لقبول اليزابيت للاتشاح بالثوب الرهباني وللبدء بفترة الابتداء. وكتبت اليزابيت:

«في الثـامن، وهـو عيـد العذراء المحبول بها بلا دنس، ستوشحني مريم بثوب الكرمل العزيز. وسأستعد لهذا اليوم الجميل، يوم خطوبتي، برياضة تدوم ثلاثة أيام. اني حينما افكر في هذا الامر، اشعر وكأني لست بعـد على الارض. صلي كثيرا لكـرمليتـك الصغـيرة لكي تكـون كلها معطاة ومهداة، ولكي تبهج قلب معلمها. اريد ان اعطيه يوم الاحد شيئا ممتازا، لاني احب مسيحي غاية الحب.»

وفي الـكـرمـل، تبحث اليـزابيت عن الله خلال كل شيء: في الصمت وفي عزلـة حيـاة المشـاهـدة التي تحيـاهـا، وذلـك بقلبها الطافح انـذهـالا والامـين والمخلوق للحب. وهي تصف هذه الحياة الرائعة التي تعيشها في الدير:

«انـك تسألينني عن اشغـالي في الكـرمل. بوسعي ان اجاوبك ان للكـرمليـة مهمـة واحـدة وهي «أن تحب وتصـلي». الا ان لها ايضـا، مع

البزابيت الراغبة عن يمين الام جيرمين

حيـاتها المسبقـة في السـماء، جسـدا على الارض. لذلـك عليهـا، مع استسـلامهـا الى الحب، ان تشتغل لكي تكمل ارادة ذاك الذي قام بهذه الامـور كلهـا ليعطينـا المثـل. اننـا نبدأ نهارنا بساعة من الصلاة الصامتة وذلك في السـاعة الخامسة صباحا. ونقضي سـاعة اخرى في الخورس لتـلاوة الفرض المقـدس.. ثـم يأتي وقـت القـداس.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر، نصلي صلاة المساء. ومن الساعة الخامسة حتى السـادسـة نقـوم بالصـلاة الصامتة. ونتلو صلاة الغروب في الساعة الثـامنـة الا ربعـا. ثم نبقى في الصـلاة حتى فرض الليـل الذي نتلوه في السـاعـة التـاسعـة. ولا نغـادر الخورس الا في نحو الساعة الحادية عشرة ليـلا، فنـذهب لنأخـذ قسطا من الراحة والنوم. ولنا في النهار ساعتان من الفـرصـة. ما خلا ذلك، فاننا نخلد الى الصمت كل الوقت. وعندما لا يكـون لي كنس، اشتغـل في غرفتنـا الصغـيرة التي تحتوي على سرير من القش وكـرسي صغـير ومنضـدة على لوح من خشب: هذا هو الاثـاث كله. ولكن الغـرفـة مليئـة بالله، واقضي فيهـا سـاعـات عذبة وحدي مع العـريس. والغـرفـة في نظـري شيء مقـدس، انـه مقـدسي الداخلي. لا شيء فيـه مما ليس له ولعـروسـه الصغـيرة. وكـلانـا فيه على ما يرام: فأسكتُ وأصغي اليـه.. ما ألـذ لي ان اسمـع كل شيء منـه. واني احبه حينـما استخـدم الابـرة واشتغل في هذا الثوب الرهباني الخشن الذي طالما اشتقت الى الاتشاح به!»

«صـلي قليـلا لكي يكـون (بيت الله) ـ اشـارة الى معنى اسمهـا ـ مليئـا ومحتـلا بالثـلاثـة... اسألي يسوع الا احيا من بعد، بل ان يحيا هو

قبل الاتشاح بالثوب الرهباني

الراهبة المبتدئة

فيّ. . . يبدو لي ان هذا هو سر القداسة وانه لامر بسيط. يا امي الحبيبة، ما احلى التفكير في ان سماءنا هي فينا، هذه السماء التي طالما أحنّ اليها. . . وما اعذب اللحظة التي فيها سيسقط الحجاب اخيرا فننعم وجها لوجه بذلك الذي اياه وحده نحب. وبانتظار ذلك الوقت، إني احيا في الحب واغطس واضيع فيه: انها اللانهاية التي تذوب نفسي شوقا اليها. . .»

البزابت مع والدتها واختها

وتبوح اليزابيت بسر سعادتها الحقيقية :

« . . . يبدو لي اني وجدت سمائي على الارض، بما ان السماء هي الله وان الله هو نفسي . ويوم ادركت هذا ، استنار فيّ كل شيء . وأود ان افضي بهذا السر بصوت خافت الى جميع الذين احبهم ، لكي ينقادوا هم ايضا ، من خلال كل شيء ، الى الله دوما ، ولكي تتم صلاة المسيح هذه : «يا ابتاه ، ليكونوا مكمّلين في الواحد» .

فنرى ان عزلة اليزابيت في دير الكرمل لا تدفعها الى الانطواء على ذاتها وعلى تذوّق نعيمها بانغلاق وانانية . انها عزلة مادية ، ولكنها مليئة بحضور الله وبحضور جميع الذين تحبهم في الله . فهي تفكر فيهم ، وتصلي

خورس الدير

لاجلهم، وتمارس رسالة مكثفة نحوهم بما توجهه اليهم من الكتابات التي فيها تدعوهم الى مشاركتها نعيمها وسعادتها. انها تريد ان تنقل فرح المسيح الى الجميع. وتقول:

«ان حياة الكرملية مشاركة في الله من الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح. فاذا لا يملأ غرفنا واروقتنا، فيا للفراغ! لكننا نراه من خلال كل شيء، لاننا نحمله فينا، وحياتنا سماء مسبقة. اسأل الله ان يعلمك هذه الاسرار كلها.»

ان حياة اليزابيت الكرملية هي الان حياة خفية، حياة في خدمة الكنيسة، حياة جماعية وحياة عزلة في الوقت ذاته، حياة منظمة حسب مجرى الازمنة والاعياد الليتورجية والاحاد، وحسب توقيت لا يكاد يتغير. وفي رتابة المشاهدة هذه، يكون الله هو المفاجأة الكبرى بحضوره للايمان والمحبة. .

«ان الصوم والاسبوع المقدس ويوم القيامة احداث فريدة في الكرمل. بأي فرح انشدتُ «هللويا» وأنا متشحة بالعباءة البيضاء وبتلك الثياب المقدسة التي طالما اشتقت اليها. ان نهار خميس الاسرار الذي امضيته بالقرب منه كان رائعا، وكان بودي ان اقضي الليل ايضا، الا ان المعلم شاء ان استريح. فلا بأس بذلك، فان بوسعنا ان نلقاه في نومنا كما في الصلاة الصامتة، بما انه في كل شيء وفي كل موضع وكل زمان.»

ثم تصف اليزابيت روعة عيد القيامة :

«ما اجمل الاسبوع المقدس في الكرمل! وكنت اتمنى لو انكم حضرتم صلواتنا الرائعة، ولا سيما عيد القيامة المجيد. ففي هذا اليوم ننشد صلاة الصباح في الساعة الثالثة، وندخل باحتفال الى الخورس ونحن متوشحات بعباءاتنا البيضاء وكل منا تمسك بيدها شمعة ونحن نرتل: «افرحي يا سلطانة السماء. . .» ويقام قداس القيامة في الساعة الخامسة صباحا يتبعه تطواف بديع في بستاننا الجميل. كان كل شيء هادئا وسريا الى الغاية، وكان يخيل لنا ان المعلم سيظهر لنا من خلال تلك الممرات المنعزلة، كما ظهر سابقا للمجدلية. واذا كانت عيوننا لم تشاهده، فعلى الاقل التقته نفوسنا في الايمان. ما اجمل الايمان! انه

السماء في الظلمات. وسيأتي يوم فيه يسقط الحجاب، فنشاهد في النور ذاك الذي نحبه. وريثما يرن صوت العريس وينادينا، علينا ان نبذل طاقاتنا ونتألم لاجله، ولا سيما ان نحبه كثيرا».

سارت الامور سيرا ممتازا في كرمل ديجون برئاسة الام جيرمين، وتجلت السعادة والحرارة في الجماعة الرهبانية. وقد ساهمت في ذلك اليزابيت بفرحها وبساطتها ولطفها وبروح الخدمة والتضحية عندها. فهي تقوم بنصيبها من الخدمات المتواضعة في الحياة الجماعية وتساعد في اعداد الثياب، وستكون بعد ابراز نذورها مساعدة للاخت البوابة. وستُعهَد اليها مرات عديدة مهمة تنشئة الراغبات الجديدات على العوائد والتقاليد الرهبانية.

الناذرة

مرت الشهور الاربعة لراغبية اليزابيت في الفرح والنور. الا ان سنة ابتدائها كانت صعبة قاسية. لكن اليزابيت لا تعرف للتذمر معنى، ولا شيء ينبىء عن آلامها في الرسائل التي توجهها الى عائلتها والى صديقاتها في العالم. وللمرة الثانية في حياتها تعرضت للقلق والوساوس الناجمة جزئيا عن شوقها الملح الى القيام بكل شيء الى حد الكمال. وقد تأثرت صحتها بحالتها النفسية، وكان الاحساس المفرط الطابعَ المهيمن على مزاجها. ولكن لا احد يعرف هذه الآلام سوى رئيستها. وفي عشية ابرازها النذور، رأت الام جيرمين من الضروري ان تدعو الاب «فيرون» لكي يفحص الالتزام النهائي الذي ستقدم عليه اليزابيت.

وكتبت اليزابيت نفسها كلمة وجيزة عن ذلك اليوم جاء فيها:

«قبل قليل رأيت أمنا التي اقرت لي بقلقها بشأن ابرازي نذوري وانا في تلك الحالة النفسية. صلي لاجل صغيرتك التي تعاني من شدة القلق».

وكان سرها في التغلب على الصعوبات هو ايمانها بمحبة المسيح وارادتها في ان تقابل حبه بالحب.

وفي ٢٩ كانون الاول ١٩٠٢، تخبر اليزابيت بان نذورها ستجري في عيد الظهور (الدنح) الواقع في تلك السنة في ١١ كانون الثاني ١٩٠٣. وما ان ابرزت نذورها، حتى عاد السلام وغمر نفسها. والرسائل التي كتبتها سنة ١٩٠٣ تنشد سعادة الناذرة الشابة وتطلعنا على عمق نظرتها الى المشاهدة:

«من يستطيع ان يصف فرح نفسي حينما نظرت الى الصليب الذي تلقيته بعد ابرازي النذور والذي وضعته أمنا المحترمة «مثل ختم على قلبي»! فقلت لنفسي: «اخيرا هو كله لي، وانا كلي له، وليس لي سواه وهو كل شيء لي!» والآن لا شوق لي سوى ان احبه، ان احبه في كل حين، وان اغار على اكرامه مثل عروس حقيقية، وان اسعده اذ أجعل له مقرا وسكنى في نفسي، فينسى هناك بفرط المحبة كل ما يأتيه الاشرار من المنكرات...

ما اكثر الامور التي جرت منذ رسالتي الاخيرة! فقد اسمعتني الكنيسة عبارة «هلمي يا عروس المسيح»، وكرستني. والآن لقد تم كل شيء، أو بالاحرى كل شيء قد ابتدأ. لان ابراز النذور ليس الا فجرا،

وكل يوم تبدو لي حياة العروس اجمل وأكثر نورا وسلاما ومحبة. في الليلة السابقة للنذور، بينما كنت في الخورس وانا انتظر العريس، ادركت ان السماء تبتدىء على الارض، السماء في الايمان مع الالم والتضحية في سبيل ذاك الذي احبه... آه! كم اود ان احبه، ان احبه مثل أمي السرافية (تريزة) حتى الموت. «يا ضحية المحبة»: هكذا ننشد في يوم عيدها، وهذا هو كل طموحي: ان اكون فريسة المحبة. ويبدو لي ان العيش من الحب سهل جدا في الكرمل. فمن الصباح حتى المساء يعبّر لنا القانون عن ارادة الله في كل لحظة. لو كنت تعلمين كم اني احب هذا القانون الذي هو الشكل الذي به يريدني الله قديسة. لا ادري هل سيكون لي السعادة بأن اقدم للعريس شهادة الدم. الا اني على الاقل حينما احيا حياتي الكرملية باصالة، فاني اتعزى لكوني افني حياتي لاجله وحده. فماذا يهمني العمل الذي يريده مني: وبما انه دوما معي، فالصلاة الصامتة قلبا الى قلب يجب الا تنتهي قط. اني اشعر به حيا الى الغاية في نفسي، وليس لي سوى ان اختلي لكي القاه في عمق ذاتي، وهذا ما يوليني ملء السعادة. لقد وضع في قلبي عطشا مذيبا الى اللانهاية وحاجةً الى الحب لا يشبعها سواه: فاذهب اذن اليه، كما يذهب الطفل الى امه، لكي يملأ ويغزو كل شيء، ولكي يأخذني ويحملني بين ذراعيه. يبدو لي ان عليّ ان اكون في غاية البساطة مع الله».

أحداث اليمة

لم تتكلم اليزابيت كثيرا عن حالة الكنيسة في فرنسا وفي ابرشية ديجون بالذات، وان كانت هذه الحالة لم تتركها غير مبالية. الا ان

الراهبة الناذرة

رسالتها هي «الاتحاد» بالله، كما شرحت ذلك في رسالة هامة وجهتها في ٢٥ كانون الثاني ١٩٠٤ الى اندري شفينيار، وهو تلميذ في المعهد الكهنوتي وشقيق زوج اختها ماركريت. انها رسالة تسرد فيها فقرات طويلة من رسائل القديس بولس التي تكتشفها الآن بكل حماس. وهي للمرة الاولى ترى فيها مثلها الاعلى مكثفا في عبارة وجيزة هي «تسبحة مجد» (افس ١/١٢).

الا ان الاحداث في فرنسا كانت تثير القلق في الاوساط الدينية والرهبانية. فقد شرعت السلطات المدنية سنة ١٩٠٢ و١٩٠٣ بتطبيق قانون ٢ تموز ١٩٠١ حول الجمعيات الدينية. واضطرت الوف من الاديرة الى غلق ابوابها في وسط اضطرابات واحتجاجات الجماهير. وجاء قانون آخر في ٧ تموز ١٩٠٤ يمنع كل الجمعيات الرهبانية من التعليم. وهذا ما الغى مئات من المدارس الاهلية في فرنسا.

وظل كرمل ديجون في موضعه، ولو بغير اجازة. رلكنه اضطر الى اغلاق ابواب كنيسته امام المصلين في ١٦ نيسان سنة ١٩٠٣. وفي ايار ١٩٠٣، قامت الام جيرمين بسفر الى بلجيكا حيث اعدت ملجأ لكرمليات ديجون. وفي وقت لاحق، أُرسل الى هذا الموضع قسم من الاثاث تحسبا لكل الطوارىء الممكنة.

أما اليزابيت الغائصة في الله، فتلتزم الصمت الداخلي وتسلم ديرها والكنيسة وذاتها الى الله. وهي تحافظ على الصمت عينه فيما يتعلق بقضية المطران «لو نورديز» التي احدثت اضطرابا في ابرشية ديجون كلها. فكان المطران من النزعة الجمهورية، وقد اتُّهم ايضا بالماسونية، زوراً على

اليزابيت تصلي وتتامل

مارگريت مع زوجها وابنتها

ما يبدو. وبلغت الاضطرابات في الابرشية أوجَها سنة ١٩٠٤ حينما استُدعي المطران الى روما حيث دعاه البابا بيوس العاشر الى تقديم استقالته. وستكون هذه احدى الذرائع لقطع العلاقات الدبلوماسية بين الكرسي الرسولي وفرنسا حيث صُوِّتَ سنة ١٩٠٥ على قانون الفصل بين الكنيسة والدولة.

لابد ان اليزابيت كانت مطلعة على هذه الاحداث كلها. وكان

احد التلاميذ المضربين سنة ١٩٠٤ احتجاجا على المطران هو الاكليريكي اندري شفينيار . . .

وبهذا الصدد تكتب اليزابيت اليه :

«ان نفسي تحب الاتحاد بنفسك في صلاة واحدة لاجل الكنيسة والابرشية . وبما ان الرب يمكث في نفسينا ، فان صلاته هي لنا ، وبودي الاشتراك فيها دوما ، معتبرة ذاتي مثل اناء صغير عند النبع ، عند معين الحياة ، لكي استطيع بعد ذلك ان انقلها الى النفوس ، فاترك امواج محبتها اللامتناهية تطفح على الجميع .

«اقدس لهم ذاتي ، ليكونوا هم ايضا مقدسين في الحق» . لنتبنَّ كلمة الرب هذه ، ولنقدس ذواتنا للنفوس . وبما اننا جميعا اعضاء في جسد واحد ، فبمقدار ما نملك الحياة الالهية بغزارة ، بمقدار ذلك يمكننا نقلها الى جسد الكنيسة الكبير . ففي نظري ، كلمتان توجزان كل قداسة وكل رسالة : «الاتحاد، الحب» .

ان اليزابيت مقتنعة بان النفس في العمل ، وهي تقوم بمهمة مرتا ، تستطيع ان تبقى دوما ساجدة مثل المجدلية في مشاهدتها ، اذ تقف عند هذا النبع كعطشى . اني هكذا افهم رسالة الكرملية والكاهن . فكلاهما يستطيعان ان يشعا الله ويعطياه للنفوس اذا استمرا دوما عند هذه المنابع الالهية . يبدو لي انه ينبغي الدنو من المعلم والمشاركة في نفسه والتمثل بجميع حركاته الى حد بعيد ، ثم التوغل مثله في ارادة ابيه . »

وكانت فرحة اليزابيت عظيمة حينما انجبت اختها ماركريت ابنتها

الارلى في ١١ آذار ١٩٠٤ ودعت اسمها اليزابيت، تيمنا باسم خالتها الكرملية.

«حبيبتي ماركريت، لقد احتفينا حقا بابنتك «زابيت» الصغيرة هذا الصباح في الفرصة، وكانت امنا المحترمة واللطيفة سعيدة جدا بان ترينا صورتها. وتتصورين خفقان قلب خالتها اليزابيت... آه! اختي ماركريت، اني احب هذا الملاك الصغير بقدر ما تحبها والدتها الصغيرة، على ما اظن، وهذا ليس بالامر القليل. ثم اني اشعر بكثير من الاحترام تجاه هيكل الثالوث الصغير هذا. وتظهر لي نفسها كالبلور الذي يعكس الله. فلو كنتُ بقربها، لجثوتُ على ركبتيّ لاسجد لذاك الذي يمكث فيها!»

«... ان الصغيرة الحبيبة تحمل اسمي. ويبدو لي ان الله يعطيها لي لاكون ملاكها فأتبناها كليا. كم صليت لاجلها قبل ميلادها.. ستكونين لطيفة جدا اذا اخبرتني بيوم عمادها، لاستطيع مرافقة ابنة اختي الصغيرة المحبوبة الى جرن العماد، حينما ينحدر الثالوث الاقدس الى نفسها»(١).

---

(١) لقد دخلت اليزابيت الصغيرة هذه دير الكرمل في ديجون منذ حداثة سنها، ودعيت «اليزابيت يسوع». وهي ما تزال فيه وقد تجاوزت الثمانين من عمرها وتقوّس ظهرها وانحنت رقبتها. وحينما التقيتها في ٢٤ أيلول سنة ١٩٨٤ وتحدثت اليها عن خالتها، اكتفت بابتسامة عذبة.

كان فصل الخريف زمنا قويا للكرملية الهائمة بالله. فقد قامت برياضتها الروحية الشخصية من ٢٦ أيلول حتى ٥ تشرين الاول. وقضت هذه الايام العشرة في العزلة التامة والصلاة المكثفة، ثم جاءت رياضة الجمعية كلها التي ابتدأت من ١٢ تشرين الثاني واستمرت حتى ٢١ منه، والقى مواعظها الاب «فاج» الدومنيكي. وفي نهاية هذه الرياضة، وضعت اليزابيت صلاتها الشهيرة: «يا الهي، الثالوث الذي اسجد له. . . » وسننقلها للقراء في نهاية هذا الكتيب. انها لم تكن مجرد صلاة، بل كانت تقدمة حقيقية وهبت فيها اليزابيت ذاتها للثالوث.

واننا نسمع صداها في رسالة كتبتها بعد ثمانية ايام الى اخيها الروحي قالت فيها:

«لست أنا أحيا بعد، بل المسيح يحيا فيّ»: هذا هو حلم نفسي الكرملية، وهذا هو ايضا حلم نفسك الكهنوتية حسب ظني. وهذا خاصة حلم المسيح، واسأله ان يحققه كاملا في نفسينا. لنكن له نوعا ما بشرية إضافية يمكنه فيها ان يجدد سره كله. لقد طلبت منه ان يستقر فيّ كساجد ومعوّض ومخلّص. ولا استطيع التعبير لك عن السلام الذي يتولى نفسي حينما افكر في انه يعوّض عن عجزي. واذا ما سقطت في كل لحظة، فهو هناك لكي ينهضني ويحملني الى ابعد في ذاته، في عمق هذه الماهية الالهية التي نسكن فيها من الآن بالنعمة. فاني اريد ان أُدْفن في تلك الاعماق، بحيث لا يتسنى لشيء ان يخرجني منها. وهناك تلتقي نفسي بنفسك. وبالتناغم معها، اخلد الى الصمت لاسجد لذاك الذي احبنا الى هذا الحد!»

مصادر اليزابيت

لقد قيل الكثير عن فقر اليزابيت فيما يخص الافكار الشخصية والابتكارات الروحية. فان اليزابيت، دون ان تطالع الكثير من الكتب، منفتحة تمام الانفتاح لكل ما يتعلق بالثقافة الدينية والتعليم الروحي. فهي تسرد، بالاضافة الى الكتاب المقدس، كتابات تريزة الافيلية الكبيرة ويوحنا الصليبي وكاترينة السيانية وانجيلة دي فولينيو ورويسبروك ولاكوردير وديونيسيوس الاريوفاغي واوغسطينس وفرنسيس كسفاريوس وتريزة الصغيرة، وكتابات المرشدين الروحيين للكرمل، ولاسيما الاب فاليه.

الا ان نصين هامين من رسائل القديس بولس استقطبا اهتمامها وأثرا في روحانيتها تأثيرا عميقا. وكان ذلك نتيجة قراءتها رسالة البابا بيوس العاشر الصادرة في ٤ تشرين الاول سنة ١٩٠٣. وهذان النصان هما: افسس ١/٤-٦، وروم ٨/٢٩-٣٠، بالاضافة الى نص آخر كان له ايضا صدى عميق في نفسها، وهو: فيلبي ٣/١٠، ١٢-١٤. الا ان اليزابيت لم تكتفِ بسرد النصوص، بل عاشتها في اعماق نفسها واستخلصت منها روحانية رائعة، روحانية قديمة وجديدة: سكنى الثالوث في اعماق النفس.

وفي مطلع عام ١٩٠٥، كتبت اليزابيت: «لتكن هذه السنة سنة حب ولمجد الله كلها». لقد اضحت رسائل القديس بولس غذاءها الروحي اليومي. وهي تريد أكثر فأكثر ان تصبح «تسبحة» لمجد الله الذي «كله محبة» وان تبلغ الى الاعالي التي دُعيت اليها.

«كل يوم يزيدني خبرة بعذوبة عطاء الذات له وله وحده، ودعوتي الكـرمليـة تضعني في موقف السجود والشكر. اجل، ان ما يقوله القديس بولس لصحيـح: فان الله احب صغيـرتـه اليـزابيت حبـا مفـرطا. الا ان الحب ينـادي الحب. فلا أسأل الله شيئـا آخـر سوى ان ادرك علم المحبة الذي يتكلم عنه القديس بولس، والذي يود قلبي الولوج الى اعماقه.

بوادر المرض

اخـذت حالـة اليـزابيت الصحية تتدهور شيئا فشيئا سنة ١٩٠٦. ففي ربيع ١٩٠٥، خُفِّفت لها بعض نقاط من القانون. وفي منتصف آب أعفيت من مهمـة البـوابـة المسـاعـدة. وصـارت صحتهـا متأرجحـة، واضطرت الى الاخلاد الى الراحة. وفي هذه الفترة كتبت في ١٩ نيسان ١٩٠٥ الى والدتها والى اختها التي رُزقت ابنة ثانية سمتها «أوديت»:

«ان امنا الحنون التي تعتني بابنتك اليزابيت بقلب والدي، شاءت ان اخـرج الى الهـواء الطلق. فعوض العمل في غرفتنا الصغيرة، اجلس الآن مثـل ناسكـة في موضـع منعـزل من بستـاننـا الكبير، وهناك اقضي سـاعـات عذبـة. فالطبيعة كلها تبدو لي مليئة بالله: الريح التي تهب على الاشجـار البـاسقـة، والطيور الصغيرة المغردة، والسماء الزرقاء الجميلة: كل هذا يحدثني عنـه.آه! يا امي! اني بحـاجـة الى الاعـراب لك عن سعادتي التي تزداد دوما وتتخذ ابعادا لا متناهية مثل الله ذاته. انها سعادة هادئـة وعـذبـة الى الغـايـة. واني اريـد ان افضي اليـك بسـري: يقول القديس بطرس في رسالته الاولى: «لانكم تؤمنون، فستمتلئون فرحا لا يتـزعزع» (١ بطرس١/٨= بتصرف). اظن ان الكرملية تستقي سعادتها

كلها من هذا النبع الالهي : الايمان. فهي تؤمن بمحبة الله لها، كما يقول القديس يوحنا، وتؤمن بان هذه المحبة هي التي اجتذبته الى الارض... والى نفسها، لان الذي دعا نفسه «الحقيقة» قال في الانجيل: «امكثوا فيّ وأنا فيكم». فهي بكل بساطة تطيع هذا الامر العذب، وتعيش في الالفة مع الله الذي يمكث فيها والذي هو حاضر فيها اكثر من حضورها لذاتها. ان هذا كله، يا امي الحبيبة، ليس من قبيل الشعور أو الخيال، بل من الايمان الصافي!»

ثم كتبت الى اختها ماركريت:

«لقد قرأت في القديس بولس امورا رائعة حول سر التبني الالهي. واني طبعا فكرت فيك، ولا عجب في ذلك. فانت أم، وتعلمين اغوار المحبة التي وضعها الله في قلبك لاولادك. ويمكنك استيعاب عظمة هذا السر: اننا ابناء الله! الا تهتزين لهذه العبارة، يا عزيزتي ماركريت؟ اصغي الى القديس بولس الذي يقول: «لقد اختارنا الله فيه قبل انشاء العالم، وميّزنا لتبنّي الابناء، ليتجلى مجد نعمته»، اي ان الله بقدرته اللامتناهية يبدو وكأنه لا يستطيع ان يعمل ما هو اعظم من ذلك. واصغي ايضا: «اذا كنا ابناء، فنحن ايضا ورثة.» وما هذا الميراث؟ «لقد اهلنا الله ان نحظى بنصيب القديسين في النور». ولكي يقول لنا الرسول ان هذا ليس للمستقبل البعيد، يضيف بقوله: «فلستم بعد نزلاء ولا غرباء، بل انتم اهل مدينة القديسين واهل بيت الله». ويقول ايضا: «ان حياتنا هي في السموات» آه! يا ماركريت! ان هذه السماء وهذا بيت الآب هو في «مركز نفسنا». وكما ستقرئين ذلك في القديس يوحنا

الصليبي، اننا اذ نكون في اعمق مركزلنا، نكون في الله. اليس الامر بسيطا ومعزّيا. فمن خلال كل شيء، وفي وسط المهام الوالدية، بينما تكونين كلك للملائكة الصغار، بوسعك ان تختلي في هذه العزلة لتستسلمي الى الروح القدس ليغيّرك الى الله ويطبع في نفسك صورة الجمال الالهي، لكي، حينما ينحني الآب عليك، لا يرى سوى مسيحه، فيمكنه ان يقول: «هذه هي ابنتي الحبيبة التي بها سررتُ...»

شجاعتها في الالم

كانت اليزابيت تتحلى بشجاعة كبيرة. لذلك فان الأخوات من حولها لم يتحققن من خطورة مرضها الذي كانت تقلل من اهميته كلما دار الحديث عنه. ولكنها بعد ذلك ستعترف قائلة:

«في الصباح، بعد تلاوة فرض الساعات الصغيرة، كنت اشعر بأن قواي تخور، وكنت اتساءل كيف سيمكنني البلوغ الى المساء. وحينما كنتِ (أي الرئيسة) تمنحيني استراحة، لم اكن ارتاح فيها، اذ كنت محطمة بكل كياني، فلا اجد وضعا يريحني ولا نوما عميقا، ولا اعلم أيا من النهار او الليل كان اشدَّ وطأة عليّ. وكانت الصلاة خير علاج لآلامي. فكنت امضي وقت الصمت العميق في نزاع حقيقي اقرنه بنزاع المعلم الالهي، وانا جالسة بالقرب منه بجانب مشبّك الخورس. انها كانت ساعة آلام محضة، ولكنها كانت تكسبني قوة لصلاة الليل، حيث كنت اجد بعض السهولة للتفكير في الله. وبعد ذلك كنت اعود الى عجزي من جديد. ودون ان يلاحظني احد، بفضل الظلام السائد، كنت احاول العودة الى

غرفتنا، مستندة الى الجدار.»

ان اليزابيت الآن على يقين من انها ستموت قريبا. انها سعيدة ان ترى الله، ولكنها ايضا تشعر بصغرها وباحتياجها الى ان تطهّرها رحمتُه...

«يقول القديس بولس العظيم: «حيث ازدادت الخطيئة، هناك تفاضلت النعمة». يبدو لي ان النفس الاكثر ضعفا وخطأ هي تلك التي لها سبب اوفر للرجاء، والفعل الذي تقوم به في سبيل نسيان ذاتها والارتماء بين ذراعي الله يمجده ويوليه فرحا اعظم مما توليه العودة الى ذاتها والى التحاليل التي تجعلها تهضم مصائبها، في حين ان لها في محور ذاتها مخلصا يريد في كل لحظة ان يطهّرها...»

وفي وسط آلامها القاسية، تتذكر آلام المخلص:

«لقد اراد ان يتألم هو الاول، لكي نستطيع ان نقول في الساعات الاليمة ونحن ننظر اليه: لقد تألم أكثر مني، وذلك لكي يعبر لي عن محبته ولكي يطالبني بالمحبة... وحينما يتكلم المزمّر عنه يقول: «ان المه عظيم مثل البحر»، ويقول القديس بولس في اثره: «ليس لنا حبر عاجز عن ان يشفق على ضعفنا، لانه خضع مثلنا لكل تجربة»... ان الهنا قد دعي: «نارا محرقة»، وهو ايضا «الغني بالمراحم لاجل حبه العظيم»! يا له من موضوع يدفع النفس الى القول بثقة مع القديس يوحنا: «أومن بمحبته!» (...) يبدو لي اني لو رأيت الموت، بالرغم من جميع تقصيراتي، لاستسلمت بين ذراعي الهي كالطفل الذي ينام على قلب امه... فان الذي سيكون ديانا يسكن الآن فينا، وقد جعل ذاته رفيقا لنا في مسيرتنا، لكي يساعدنا على تخطي المجاز الاليم».

الزايرة مريضة

الفصل الثالث
المرض والوفاة

قبل نهاية شهر اذار سنة ١٩٠٦، اشتدت وطأة المرض على اليزابيت. فأُدخلت الى غرفة المرضى، وستبقى فيها ثمانية اشهر ونصف الشهر. واضحت تغذيتها تزداد عسرا يوما فيوما. وفي مساء الثامن من نيسان أصيبت باغماءة مفاجئة، مما زاد من خطورة حالتها الصحية الواهية. وكتبت هي ذاتها عن تلك الفترة تقول:

«في مساء احد السعانين، اصابتني نوبة شديدة، وظننت ان الساعة بلغت اخيرا لاذهب واحلّق في الاجواء اللامتناهية لاشاهد دون حجاب الثالوث الذي كان مقر اقامتي منذ هذه الحياة. وفي هدوء تلك الليلة وسكوتها، اقتبلت سر المرضى وزيارة معلمي الالهي. وخيّل لي انه كان ينتظر تلك اللحظة ليحطم قيودي. آه! يا اختي الصغيرة، يا لها من ايام تفوق الوصف امضيتُها في انتظار المشاهدة الكبيرة. وكانت امنا المحترمة واللطيفة عند سريري دوما، وهي تعدّني للقاء العريس. وفي شوقي الشديد الى الذهاب اليه، كنت اجد انه يتأخر كثيرا عن المجيء. ما اعذب وألذّ الموت للنفوس التي لم تحب سواه، والتي، حسب كلام القديس بولس، لم تفتش عن الامور المنظورة لانها زائلة، بل عن اللا

منظورة لانها باقية ابدا. اجل، اني كنت في غاية السعادة بأن اموت كرملية.»

مرّ الاسبوع المقدس صعبا جدا على اليزابيت، ولا سيما الجمعة العظيمة حيث بلغ منها الضعف اقصى حده. اما في السبت المقدس فقد طرأ عليها بعض التحسن. الا ان الاخوات لم يتوهمن حول امكانية شفائها الا باعجوبة شرعن يلتمسنها من الله القدير. ويوم عيد القيامة، طلبت ان يكتبوا الى والدتها السطور التالية التي املتها هي ذاتها:

«كم كنت اعيش معك، لو اني انطلقت الى السماء. اذن لما تركتك وجعلتك تشعرين بحضور ابنتك الصغيرة اليزابيت. واذ اني على يقين من انك تفهمينني، فأقرّ لك بصوت خافت بخيبة املي الكبيرة من اني لم اصعد الى ذلك الذي احبه غاية الحب. فكّري في روعة يوم القيامة لابنتك لو انها امضته في السماء. الا ان الامر كان شخصيا. أما الآن، فدأبي هو الطاعة التي تفرض عليّ ان التمس شفائي... لو تعلمين كم ان أمنا لطيفة. انها والدة حقيقية لابنتك. وأؤكد اني في مساء نوبتي، وبالرغم من فرحي في الذهاب الى الله، كنت بحاجة الى سماع صوتها والى الشعور بيديها موضوعتين في يديّ، لان هذا الوقت مهيب، ويشعر المرء بكونه صغيرا الى الغاية، وبان يديه فارغتان كل الفراغ.... لنشكر الله على تلك الايام الصعبة على قلبك. اني اشعر شعورا عميقا بأنها تمر علينا، يا امي الحبيبة، مثل سيل من الحب. فلا نضيعن منها شيئا، ولنقل شكرا لذلك الذي لا يعرف سوى ان يحبنا.»

«لو تعلمين كم اني سعيدة في عزلة غرفة المرضى هذه! فان معلمي

هو ههنا معي ، ونحيا ليل نهار في مناجاة قلبية عذبة . اني اثمن سعادتي الكبيرة لكوني كرملية ، واصلي الى الله من اجل الأم التي وهبتني اياه . ومنذ هذا المرض ، ازددت قربا من السماء . وسأفضي اليك يوما بهذه الامور كلها . آه! أمي الحبيبة ، لنُهيىء ابديتنا ، ولنعش معه ، لانه وحده قادر ان يرافقنا وان يساعدنا في هذا العبور الكبير . »

ولكانت الحياة في غرفة المرضى في الكرمل اصبحت رتيبة ومملّة لولا حضور الله ومحبة اخواتها وألطاف اقاربها وصديقاتها اللواتي يأتين لزيارتها في متحدّث غرفة المرضى .

وجاءتها نوبة اخرى في ١٣ أيار أوشكت ان تقضي عليها . وقالت عنها :

« بعد كتابتي اليك ، بدت السماء وكأنها تنفتح من جديد ، ولكنك صليت بقوة بحيث اني ما زلت حتى الآن اسيرة . ولكني اسيرة سعيدة تشيد ، في عمق نفسها ، بمحبة معلمها ليل نهار . فما ألطفه! . . . انه يعطي ذاته لنفسي الى حد يبدو فيه وكأنه لا شغل آخر له سوى ان يفكّر فيّ وان يحبني . انما يفعل ذلك لكي اسلم انا ايضا اليه ذاتي لاجل كنيسته وجميع مصالحه ، ولكي اهتم باكرامه مثل امي القديسة تريزة . اطلبي ان تكون ابنتك ايضا «ضحية الحب» .

وفي عيد الصعود الموافق ٢٤ أيار ، قالت اليزابيت :

«في الصباح ، سمعت هذه الكلمة في اعماق نفسي : «اذا احبني احد ، احبه ابي ، واليه نأتي ، وعنده نجعل مقامنا» . وفي اللحظة ذاتها تحققت من صدق هذا القول . لا ادري كيف تجلى لي الاقانيم الثلاثة ،

ومع ذلك كنت اراهم وهم يعقدون في نفسي مجلس المحبة، ويخيل لي اني ما زلت اراهم كذلك. آه! ما اعظم الله، وما اعظم المحبة التي تشملنا! . . . .

«اشكر لكِ الحلوى اللذيذة التي ارسلت بها اليَّ والتي اثرت في قلبي كل التأثير. الا انها أرق مما تستطيعه معدتي الرديئة التي تفضل الجبن الابيض البسيط. . .

«اني لسعيدة بأن أُحمَلَ كل صباح الى مشبَّك التناول المجاور لغرفتنا وان اعود مع معلمي لاقوم بالشكر في منامي. وفي هذا الصباح حضرت القداس وانا على كرسي تمدّد. . .

«. . . في هذه الايام، لم يسمح لي الجوبالذهاب فوق السطح، ولم اترك مقدسي الصغير، الا لاذهب الى غرفة الاجتماع المجاورة لغرفة المرضى، لكي اشترك في الاحتفال بعيد الرئيسة. فحُملتُ الى هناك مدة قصيرة على كرسي تمدد. وكانت تلك هي المرة الاولى التي فيها ارى أخوات الجمعية كلهن منذ نحوثلاثة اشهر. ولوتعلمين سعادة اخواتي اللواتي أحطنَ بي . . . انه لأمر مؤثر ان نرى كم اننا نحب بعضنا بعضا ههنا.»

مرض اديسون (١)

ان اليزابيت تعاني الآن، نتيجة لاصابتها بتدرن، من مرض اديسون غير قابل الشفاء آنذاك. ويتوقف هذا الداء على التهاب مزمن

(١) نسبة الى اديسون الطبيب الانكليزي الشهير (١٧٩٣ - ١٨٦٠) الذي وصف هذا الداء وعلاماته المميزة.

يصيب الغـدد الكظـريـة التي لا تفـرز والحـالـة هذه كمية كافية من المواد الضـروريـة للتحول الغذائي . ومن ثمة ينتج ضعف خاص واضطرابات في الامعاء وغثيان وانخفاض في الضغط وشبه استحالة التغذية ، مما يؤدي الى انحطـاط عام في القـوى ثم يفضي الى المـوت . وبالاضافة الى هذه الحـالـة العـامـة ، فان اليـزابيت تعـاني ايضـا من تعقـدات عديـدة مثـل التقـرحـات البـاطنيـة والصـداع والأرق ، الـخ . . . وبمقـدار دنوّها من الموت ، تتجلى جميع هذه الاعراض وتزداد عنفا .

وخـلال هذه الفـترة كلهـا ، كانت عنـدهـا مشكلة التغـذيـة هي المشكلة الاســاسيـة . فاليـزابيت تقتـات بالمثلجـات وبـالحليب أو الجبن الابيض . ويحـاولـون اطعامها بعض انواع الحلوى بكميات ضئيلة جدا . وتتنـاول ايضـا الشـوكـولاتة أو تمص السكاكير ، مفضلة منها تلك التي لا تسبب لها الغثيان ولا تحرق معدتها . واخذت تفقد صوتها أكثر فأكثر . اما شرب الماء والسوائل فيسبب لها عذابا اليما . . . وهكذا تقترب أكثر فاكثر من التمثل بيسوع المصلوب في حالتها الاليمة هذه .

تفاقم المرض

بلغت اليـزابيت حدا من الضعف حتى انهـا لا تستطيـع الـوقوف على رجليهـا . الا انهـا في ٨ أو ٩ تموز استعـادت قدرا طفيفـا من القوة في ساقيهـا مكّنتهـا من الـذهـاب الى السطـح المجـاور لغرفتها والى الرواق الممتـد بين غرف الـراهبـات ، ولاسيـما الى الشـرفة الصغيرة المطلّة على المعبد . ومن هناك كانت تحضر القداس وصلوات الفرض الرهباني . وهي ذاتها تطلعنا على هذه الاحداث إذ تقول :

«مـــا زالت معـــدتي ترفض الطعـام . ولكن تصـوَّري اني شرعت امشي . واني منذهلة لهذا الامر، اذ لست اقوى من السابق حيث لم اكن استطيـع حتى الى الجلوس سبيـلا . فقبل ايام ، حينما جاءت امنا ، كنت اشعـر بأني متعبـة جدا ، وقلت لها اني ماضيـة . فأجـابتني انـه عوض هذا القـول كان الأولى بي ان احـاول السـير . وكم احب أن اطيعـهـا ! وحينما بقيت وحـدي ، قمت بمحاولات على حافة سريري ، وكان ذلك يسبب لي المـا كبـيرا . فصليت الى الاخت تريـزة الطفل يسوع ، لا ان تشفيني ، بل ان تمنحني ساقـين . واستطعت ان امشي . ولـو انك رأيتني ماشية مثل عجـوز قوسـاء مستنـدة على عصـاي ، لضحكتِ كثـيرا . وامنـا اللطيفة تحيطني بذراعهـا وتقـودني الى السطـح ، وانا فخورة بذهابي وايابي . . لا تبكي على ابنتك اليزابيت ، فان الرب سيتركها لك بعض الوقت . . .

« . . . في ١٨ تموز سيكون لي ست وعشرون سنة . ولا أدري هل ستنتهي هذه السنة في الزمان أم في الابدية . وأسألك كما يسأل الطفل اباه ان تكرسيني في القداس الالهي مثل برشانة تسبحة لمجد الله . . . »

وفي ١٦ تموز، عيد العذراء سيدة الكرمل، كتبت الى اختها ماركريت :

دعوتي هي الحب . . . .

اختي الصغـيرة الحبيبـة ، ان رسالتك اولتني فرحا اضافيا في سمائي حيث احتفـظ بك دومـا معي . وهبتك اليوم للعذراء القديسة مع الملائكة الصغـار. آه! لم يسبق لي اني احببتهـا كما احبهـا الآن . واني لأبكي من

الفرح حينما افكر في ان هذه الخليقة الوديعة النيرة هي امي، وابتهج بجمالها مثل طفل يحب والدته! . . . »

وفي الذكرى الخامسة لدخولها الى الكرمل، كتبت الى والدتها:

«البارحة مساء، كنت اذكر تلك الامسية الاخيرة. واذ لم اكن اجد الى النوم سبيلا، جلست قرب النافذة، ومكثت هناك حتى نحو منتصف الليل في الصلاة الصامتة مع معلمي. لقد امضيت هكذا امسية سماوية. وكانت السماء من الصفاء والهدوء بحيث كان المرء يشعر بصمت عميق في الدير. وانا كنت استعرض هذه السنوات الخمس المفعمة بالنعم. آه. يا امي الحبيبة، لا تأسفي على السعادة التي اوليتني اياها. اجل، بفضل «نعم» التي لفظتِها، استطعتُ ان ادخل الى هذا الموضع المقدس، وان اتذوق وحدي مع الله الواحد مذاقا مسبقا لهذه السماء التي تجتذب نفسي الى حد كبير. ففي هذا المساء، قدمت من جديد التضحية التي قمت بها قبل خمس سنين. »

الرياضة الاخيرة

في النصف الاول من شهر آب، كتبت اليزابيت بحثها الروحي الاول: «السماء في الايمان»، لكي تفاجىء به اختها ماركريت. انه فسيفساء من الاستشهادات الكتابية، كما انها تستخدم فيها كثيرا كتابات الصوفي الفلامندي رويسبروك والمعلم الصوفي الاسباني الكبير القديس يوحنا الصليبي.

وفي مساء ١٥ آب، دخلت اليزابيت في رياضة روحية شخصية. ونزولا عند طلب الام جيرمين، كتبت ملاحظاتها اليومية في كراس

سيكوّن «رياضتها الاخيرة» الرائعة[1]. وهي اذ تعطينا ثمرة مشاهدتها للكلمة الموحاة، تزودنا في هذه الصفحات بكثافة حقيقية لمعلومات تتعلق بحياتها. فان اليزابيت لا تتكلم فيها كلاما نظريا يخص اللاهوت أو التصوف، بل تعطينا شهادة حية فيها تمثل «النفس» اليزابيت ذاتها في خبرتها الروحية. انها تخبرنا برياضتها «الاخيرة» بهذه العبارات:

«اني انطلق مع العذراء القديسة في مساء انتقالها لكي استعد للحياة الابدية. وامنا اسدت اليَّ خيرا كبيرا حينما قالت لي ان هذه الرياضة ستكون فترة ابتدائي للسماء، وان العذراء القديسة ستوشحني بثوب المجد في ٨ كانون الاول، اذا وجدتني مستعدة لذلك. ان السعادة الابدية تجتذبني أكثر فأكثر: ولا يدور الحديث بيني وبين معلمي الا عن هذا الامر، وتتوقف مهمته كلها على اعدادي للحياة الابدية... وهذا ما سأحاول ان اتعلمه منه: التطابق والتمثل بمعلمي المسجود والمصلوب حبا!»

نحو الجلجلة

في شهر ايلول، اشتدت وطأة المرض على اليزابيت وتفاقمت آلامها، حتى انها احيانا تقرّ بأن وحوشا تنهشها من الداخل، وكأن امعاءها تنتزع انتزاعا... ولن يُستعمل لها المورفين ولا المسكّنات. وهي تعلم ان الله والايمان هما اللذان يمنعانها من الانتحار. فكأن نارا تحرقها من الداخل. ولكنها تقول:

«ان الله نار آكلة، واني اتلقى عمله.»

(١) راجع الملحق في نهاية هذا الكتاب.

وتقول ايضا :

« . . . انما الله هو الذي يسرّ بتضحية برشانته الصغيرة، ، الا ان هذا القداس الذي يقيمه معي ، والذي حبه هو فيه الكاهن، قد يدوم مدة طويلة بعد. لكن الضحية الصغيرة لا تجد الوقت طويلا بين يدي ذاك الذي يضحيها ، وبوسعها ان تقول انها اذا اجتازت بسبيل الالم، مكثت اكثر على طريق السعادة الحقة، يا امي الحبيبة، السعادة التي لا يستطيع احد ان ينتزعها منها (. . .) . فالعروس هي للعريس. وقد اخذني عريسي وهو يريد ان اكون له انسانية اضافية فيها يستطيع التألم بعد لأجل مجد ابيه، ليساعد في احتياجات كنيسته. ان هذه الفكرة توليني فائدة كبيرة (. . .) اني اشكر ماركريت على الشوكولاتة التي ارسلت بها اليّ . . . »

« . . . اني أتمّ في جسدي ما نَقص من آلام يسوع المسيح في سبيل جسده الذي هو الكنيسة» : هذا ما كان يولي الرسول سعادة لا توصف. ان هذه الفكرة تلاحقني. واقرّ باني ابتهج في داخلي ابتهاجا عميقا حينما افكر في ان الله قد اختارني ليشركني في آلام مسيحه، وهذا طريق الجلجلة الذي ارتقيه كل يوم يظهر لي بالاحرى طريق السعادة. الم تري قط صورا تمثل الموت وهو يحصد الناس بمنجله؟ اجل، انها حالتي، اذ يخيل لي اني اشعر به وهو يهدمني. ان الامر صعب احيانا على الطبيعة. وأوكد لك اني لو مكثت عند هذا الحد، لشعرت بانخذالي في الالم . . . ولكن هذه نظرة بشرية. اذ اني سرعان ما افتح عين نفسي تحت نور الايمان، فيقول لي هذا

اليزابيت في ايامها الاخيرة

الايمان ان المحبة هي التي تهدمني وتحرقني ببطء، فيصبح فرحي عارما، واستسلم اليها مثل فريسة(. . .) انني في حالة ضعف قصوى، واحس بانني انهار في كل لحظة. وقد تكون هذه الرسالة هي الاخيرة من ابنتك اليزابيت، وقد استغرقتْ كتابتُها اياما عديدة، وهذا ما سيشرح لك ما فيها من عدم التناسق. وفي المساء لا يسعني ان اتركك. انني في العزلة. فانها الساعة السابعة والنصف مساء، والجماعة في الفرصة. أما انا، في غرفتي الصغيرة، فاظنني من الآن في السماء نوعا ما: وحدي معه وحده، وانا احمل صليبي مع معلمي. وتزداد سعادتي كلما ازداد المي. لو تعلمين اية عذوبة يجدها المرء في قعر الكأس التي أعدَّها الآب السماوي. . . .»

«ان الالم يجتذبني اكثر فأكثر. وهذا الشوق يكاد يطغى على شوقي الى السماء الذي هو شوق شديد . . . علينا ان نتأمل الاله المصلوب حبا، وهذا التأمل اذا كان حقيقيا يفضي لا محالة الى محبة الالم. يا امي الحبيبة، على النور المنبعث من الصليب، تلقَّي كلَّ محنة وكل معاكسة وكل أمر مشين. هكذا يمكننا ان نرضي الله وان نتقدم في طرق المحبة. آه! اشكريه عوضي. فأنا سعيدة الى الغاية. وبودّي لو استطيع زرع شيء من سعادتي في قلوب الذين احبهم!»

« يا امي الحبيبة، اني اتذوق جلجلتي العذبة، . وأسأل المعلم ان يضرب فيها خيمتي بجانب خيمته. اني منشغلة بالالم. وحينما يرى المرء كل ما احتمله لاجلنا في قلبه وفي نفسه وجسده، يشعر بحاجة الى ان يفيه ذلك كله، ويودّ ان يتألم كل ما تألمه هو. . . لا استطيع القول اني احب الالم في ذاته، ولكني احبه لانه يجعلني مطابقة لمن هو عريسي

وحبي . وهـذا ما يسكب في النفس سلامـا عذبـا الى الغاية وفرحاً عميقا جدا ، حتى ليتوصل الانسان الى وضع سعادته في كل ما يعاكس ارادته . امي الحبيبـة ، حاولي ان تضعي فرحـك ، ليس الفـرح الحسي ، بل فرح ارادتك ، في كل معاكسة ، وكل تضحية ، وقولي للمعلم : «اني لست اهلا لان احتمل هذا لاجلك ، ولا استحق هذا التمثل بك» ، وستتحققين من ان وصفتي هذه ممتازة!»

واذا أخفت اليـزابيت تفـاصيـل آلامها عن أسرتها، فهي لا تخفيها عن رئيستها ، بل تفضي اليها بكل شيء ببساطة وتواضع :

« ان ابنتك «تسبحة المجد» الصغيرة لا تستطيع الى النوم سبيلا . انها تتألم! ولكن نفسها ، بالرغم من المعاناة ، تنعم بهدوء عميق ، وزيارتك هي التي جلبت لها هذا السلام من السماء. فقلبهـا الصغير بحاجة ان يقـول لك ذلـك ، وفي عرفـانـه الـرقيق ، يصـلي ويتألم دوما لاجلك . آه! ساعـديني لكي اصعـد الى جلجلتي ، فاني اشعـر شعـورا قويـا بقـدرة كهنـوتـك على نفسي ، واني بأمس الحـاجة اليك . يا امي ، اني اشعر بان الثـلاثـة بالقـرب مني ، واني أَرزحُ تحت ثقل السعادة اكثر مني تحت الالم . لقـد ذكَّـرني معلمي بان هذا هوموضـع اقامتي وان عليّ الا اختار آلامي . فاني اذن اغطس معه في الالم العظيم ، مع كل خوفي وقلقي» .

صعود مستمر

ان الـرسـائل التي كتبتها اليزابيت في شهر تشرين الاول تعبر ايضا عن مثلهـا الاعلى ، وهـو التحول الى يسوع المصلوب ، وتتكلم فيها عن آلامهـا وعن سعـادتها . فانها تكتب سلسلة من رسائل هي بمثابة وصيتها

الاخيرة، فيها تتكلم عن رسالتها بعد الموت:

«آه! لو تعرفين ما هي الايام الالهية التي تمر على صديقتك في الكرمل. اني ازداد ضعفا يوما فيوما، واشعر بان المعلم لن يتأخر كثيرا في المجيء اليّ ليأخذني. اني اتذوّق واختبر افراحا لا توصف. فما اعذب وأطيب فرح الالم. قبل ان اموت، احلم بأن اتحول الى يسوع المصلوب، وهذا ما يوليني قوة كبيرة في الالم. اختي الصغيرة، كان علينا الا نضع نصب اعيننا مثالا آخر سوى ان نتمثل بنموذجنا الالهي. وأية حرارة والحالة هذه كانت ستحملنا على التضحية وعلى احتقار ذواتنا، لو كانت عيون قلبنا متجهة دوما اليه. لو كنت تعرفين السعادة الفائقة الوصف التي تتذوقها نفسي حينما افكر ان الآب قد سبق فاختارني لاكون مطابقة لابنه المصلوب. والقديس بولس هو الذي يطلعنا على هذا الاختيار الالهي الذي يبدو وكأنه نصيبي!...

«يا اخت نفسي الصغيرة، ان الله يفهمني امورا كثيرة على ضوء الابدية، فأقول لك وكأني آتية من قبله الا تخافي من التضحية والجهاد، بل عليك بالاحرى ان تبتهجي بهما، واذا كانت طبيعتك مبعث النضال وساحة للحرب، فلا تتخاذلي ولا تحزني. واقول بالاحرى: احبي شقاءك، لان الله على هذا الشقاء يمارس رحمته».

«هناك كائن هو الحب، وهو يريد ان نحيا في شركة معه. آه! يا اماه! ما اعذب هذا الامر! انه ههنا بصحبتي وهو يساعدني على الالم ويجعلني اتجاوز عذابي لكي استريح فيه. افعلي مثلي وسترين كيف ان هذا الامر يغير كل شيء.»

«عزيزتي انطوانيت، ان المرء يرى الامور على حقيقتها على ضوء الابدية. آه! ما اشد فراغ كل مالم يفُعل لاجل الله ومع الله! آه! اناشدك ان تطبعي كل شيء بختم المحبة، اذ ليس ما يبقى سوى هذا. ان الحياة لأمر رصين، وقد أعطيتْ لنا كل دقيقة لكي نزداد تأصلا في الله، حسب تعبير القديس بولس، لكي يكون التشابه مع مثالنا الالهي اقوى والاتحاد معه اعمق. أما سر تحقيق هذا المخطط، وهو مخطط الله نفسه، فهو: ان ينسى الانسان ذاته ويتخلى عنها ولا يقيم لها وزنا، وان ينظر الى المعلم، واليه وحده، وان يتقبل الفرح والعذاب وكأنه آت رأسا من محبته. هذا ما يجعل النفس مستقرة في الذرى الهادئة...

«حبيبتي انطوانيت، اني اترك لك ايماني بحضور الله الساكن في نفوسنا والذي كله محبة. استودعك اياه. انما هذه الالفة العميقة معه هي التي كانت شمس حياتي الجميلة والمشعة التي جعلت من نفسي سماء مسبقة. وهذا ما يسندني اليوم وسط آلامي. فلا اخشى ضعفي، بل هو الذي يوليني الثقة، لان القدير فيّ وعمله كلي القدرة، وهو يحقق، كما يقول الرسول، أكثر مما يمكننا ان نرجوه.»

«يخيل لي ان رسالتي في السماء ستتوقف على اجتذاب النفوس بمساعدتها على الخروج من ذاتها للانضمام الى الله بحركة بسيطة جدا ومفعمة بالحب، وعلى حفظها في هذا الصمت الداخلي الذي يتيح لله ان يطبع ذاته فيها وان يحيلها الى ذاته.... ان معلمي يستحثني، وهو لايعود يكلّمني الا عن ابدية الحب. ان هذا لأمر خطير ورصين الى

الغـايـة. وبـودي ان اعيش كل دقيقة مليئة. وداعا، اذ ليس لي القوة ولا السماح لاكتب طويلا، ولكنك تعرفين كلمة القديس بولس: «ان محادثتنا هي في السـمـاء». اختي الصغـيرة الحبيبـة، لنحيَ بالحب، لكي نمـوت بالحب، فنمجد الله الذي كله حب».

الى النور . . . والحب . . . والحياة

في ٣٠ تشرين الاول ١٩٠٦، ضمت اليزابيت الى قلبها الصليب الذي أُعطي لها عند ابرازها النذور وقالت: «لقد احبَّ واحدُنا الآخر الى الغـايـة». لقـد فقـد جسمهـا المنهـوك كل مقاومة، وباتت تلازم الفراش بصورة دائمة ونهائية. وفي مساء ذلك اليوم، اعترتها رجفة قوية هزت اوصالها . . .

وفي اليوم التالي، اقتبلت سر المرضى للمرة الثانية وتناولت القربان.

في الاول من تشـرين الثـاني، وهـو عيـد جميع القديسين، تناولت القربان للمرة الاخيرة. وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم، ظنت الـراهبـات ان ساعتهـا الاخيرة قد حانت. فاجتمعت الكرمليات كلهن حول سريـرهـا وشرعن بتلاوة صلوات المدنفين. واذا باليزابيت تستجمع قواها وتطلب الصفح من جميع اخواتها بعبارات مؤثرة. وحينما دُعيتْ الى توجيه كلمة اخيرة الى اخواتها، قالت:

«كل شيء يزول . . . في مساء الحياة، المحبة وحدها تبقى. يجب القيام بكل شيء بالمحبة، وان ننسى ذاتنا دوما: فان الله يسرّ كثيرا في ان ننسى ذاتنا. . . آه! ليتني فعلت ذلك دوما!»

البزابيت على فراش الموت

في الايام التالية، حافظت اليزابيت على صفاء ذهنها، الا ان عينيها المحتقنتين بالدم ظلتا مغمضتين بصورة تكاد تكون مستمرة. . . انها تتألم كثيرا. وهي تتكلم بين الفينة والفينة لكي تفرح الاخوات اللواتي يزرنها. انها لا تستطيع ان تتناول، ولكنها تقول: «اني اجده في الصليب، وهناك يعطيني حياته.»

وصرخت أثر نوبة عنيفة وقالت:

«ايها الحب، ايها الحب! انت تعلم اني احبك واشتاق الى مشاهدتك. وانت تعلم ايضا اني أتألم. ولكن ان اردت فأنا مستعدة لاحتمال ذلك مدة ثلاثين أو اربعين سنة أخرى. فاستنزف كياني كله لأجل مجدك، وليتقطر نقطة نقطة لاجل كنيستك. . .»

وظلت في صمت شبه مطبق في يومي السابع والثامن من شهر تشرين الثاني، واستطاعت الاخوات الحاضرات التقاط هذه الكلمات الاخيرة التي فاهت بها على الارض وهي: «اني ذاهبة الى النور، الى الحب، الى الحياة».

وكانت ليلة الثامن على التاسع من تشرين الثاني اليمة الى الغاية. فقد انتابتها آلام الاختناق القاسية. وفي نحو الصباح، خمدت عذاباتها الشديدة. وبدا من قسمات وجهها انها اوشكت ان تفارق الحياة. فاستدعيت الراهبات عند سريرها. واذا بعيني اليزابيت تنفتحان وتشعان نورا. وبصورة تكاد تكون غير ملحوظة كفت عن التنفس وطارت نفسها الى الاخدار السماوية. وكانت نحو الساعة السادسة والربع صباحا.

دير الكرمل القديم

الفصل الرابع

بعد الموت

قالت اليزابيت قبيل موتها: «يا الهي، اني في السماء لن استطيع التألم من أجلك، ولكني سأستطيع مواصلة العمل على تمجيدك».

وما كان اشد تأثر الام جيرمين حينما فتحت غلافا مختوما بشمع احمر يحمل هذه الكلمات: «اسرار لأمنا»، وقرأت ما كان يحتويه من العبارات التي كانت بمثابة وصية اليزابيت الاخيرة: «... اني لن اعمل شيئا بدونك امام عرش الله. فأنت تعلمين اني احمل ختمك، وان شيئا منك قد ظهر مع ابنتك امام وجه الله... ايتها الام الجليلة، أيتها الام المكرسة لاجلي منذ الابد، اني بمغادرتي، اترك لك هذه الدعوة التي كانت دعوتي في حضن الكنيسة المجاهدة، والتي سأقوم بها من الآن دوما في الكنيسة المنتصرة: تسبحة مجد الثالوث».

فلم يكن بوسع الكرمل، والحالة هذه، ان يحتفظ لذاته بهذا الكنز النفيس. فشرعت الام جيرمين تجمع الشهادات وتضمها في كتاب ظهر سنة ١٩٠٩ بعنوان: «ذكريات اليزابيت الثالوث». وسرعان ما انتشر هذا الكتاب في نصه الفرنسي وفي ترجماته الى مختلف اللغات اوربية، حتى

الكرمل الجديد في فلافينبرون

تسنى لاحد الاساقفة العاملين في امريكا وفي ايطاليا ان يكتب الى كرمل ديجون: «استطيع ان أؤكد لكن ان اختكن الجليلة تواصل رسالتها في النفوس بصورة مدهشة. فلا يحصى عدد النفوس التي اثرت فيها روح اليزابيت ووجهتها الى حياة داخلية شبيهة بحياتها.» وما أكثر الشهادات المماثلة التي وردت الى كرمل ديجون من مختلف الاوساط المسيحية، وكلها تتمحور حول هذه الحقيقة: اليزابيت تعلّم جميع اصدقائها سرَّ وجودْ السماء على الارض في عمق نفسهم حيث يسكن الثالوث.

فهناك امرأة متواضعة تقول: «ما كنت ادري ان الله يحبنا الى هذا الحد وانه قريب منا هذا القرب كله! ولم يكن ثمة من علّمني هذا الامر مثلما فعلت هذه الاخت الصغيرة... فان خير ما نحتاجه في مصائب الحياة هو ان نعلم ان الله يحبنا وانه معنا.»

ويقول اللاهوتي الدومنيكي الكبير - الاب غاريغو لاغرانج -: «لقد كانت خادمة الله اليزابيت الثالوث احدى تلك النفوس المنيرة والبطلة التي تعرف ان تنضم بشدة الى احدى الحقائق الكبرى البسيطة والحيوية، وان تجد فيها، تحت مظاهر حياة اعتيادية، سر اتحاد عظيم بالله.»

وأمام السيل العارم من النعم والامنية التي حصل عليها الناس بشفاعة الاخت اليزابيت، افتتحت دعوى تطويبها منذ سنة ١٩٣٠ في ابرشية ديجون. وفُتح قبرها في ١٠ تشرين الاول سنة ١٩٣٠ لاجراء الفحوص الاولى على جثمانها. واستمرت دعوى التطويب تسير ببطء، وتتراكم الشهادات والخوارق، وكان معظمها يتوقف على اهتداءات عميقة وانوار تتلقاها النفوس من تعليم هذه الكرملية الشابة. وفُتح قبرها للمرة الثانية في ١٨ تموز ١٩٦٥... ثم انتقل دير الكرمل من قلب ديجون، سنة ١٩٦٩، الى رابية جميلة تدعى «فلافينيروت» تقع على مسافة ١٢ كم في الجنوب الشرقي من المدينة حيث يتوفر الصمت والهدوء. ويقصده الآن كثيرون ليقضوا فيه نهاية الاسبوع أو أياما اخرى في الصلاة والصمت والرياضيات الروحية.

أما الدير القديم الذي عاشت فيه اليزابيت، فقد اشتراه احد سكان المدينة. واقيمت في الكرمل الجديد غرفة بالقرب من الكنيسة على غرار الغرفة التي كانت اليزابيت تسكنها، ونقلت اليها بعض اجزاء غرفتها الاصيلة، مع اغراض كانت تستخدمها في حياتها الارضية، كالمصباح والمسبحة والصليب... مع خصل طويلة من شعرها الاسود.

... واسفرت الدعوى عن قرار تطويبها في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٨٤، بعد الحصول على الادلة القانونية القاطعة لصالحها. واجري فحص اخير على بقايا جسدها في ١٠ ايلول ١٩٨٤، ونُقلت هذه الذخائر المقدسة بصورة مؤقتة الى الدير الجديد، ريثما يتم تطويبها، ثم تعاد وتوضع باكرام، في مطلع شهر كانون الاول ١٩٨٤، في كنيسة القديس ميخائيل في مدينة ديجون.

ولقد اطلعتُ شخصيا على معظم الوثائق الخاصة باليزابيت وعلى كتاباتها ورسائلها في دير ديجون. كما ان الكرمليات زوّدني بصور اليزابيت في مختلف مراحل حياتها الارضية. وانشرها ههنا شاكرا الطاف اخواتي الكرمليات.

الاعجوبة المعتمَدة

ان الاعجوبة الرئيسة التي حصلت بشفاعة الاخت اليزابيت الثالوث جرت لشخص يدعى «ماري ـ جان ـ شانو» الذي ولد في كولومب الفرنسية في ٧ آب سنة ١٩٠٩، ودخل الرهبنة السكوتية في ٣٠ تموز ١٩٢٦، وابرز فيها نذوره في ٢٣ آب ١٩٣٢، ثم اصبح رئيسا مَساعدا للدير سنة ١٩٥٢، ثم رئيسا عاما لدير سيتو الشهير في ١٩ اذار ١٩٦٣.

في مطلع شهر تموز ١٩٣٨، شعر الاب «شانو» بتعب شديد ترافقه حمى وآلام في المجاري البولية اخذت تتفاقم يوما فيوما. وظن الاطباء ان ثمة حصى في الكلى. ولكن الاشعة برهنت عن عدم وجود شيء من هذا القبيل. ثم اظهرت الفحوص ان الكلية اليمنى قد اصابها التلف وان التدرن قد سرى في الكلية اليسرى ايضا. فتمّ استئصال الكلية اليمنى في ٢٤ ايلول ١٩٣٨، واستمرت معالجته حتى سنة ١٩٤٣ دون فائدة تذكر، وانتشر الداء الى مواضع اخرى من الجسم، حتى استعصى على الاطباء. واضطر المريض الى ملازمة الفراش والتخلي عن معظم مهامه في الدير. وقرّ رأي الاطباء على ان الداء سيؤدي حتما الى موت المريض.

وقال الاب شانو نفسه انه لم يفكر في طلب الشفاء من الاخت اليزابيت، مع انه كان قد تعرف اليها من خلال كتاباتها قبل دخوله الدير، وقد التمس منها نعمة الدخول عند السكوتيين.

في نهاية كانون الثاني ١٩٤٣، وعلى اثر رياضة روحية في الدير، قرر الرئيس البدء بتساعية الى الاخت اليزابيت للحصول على شفاء المريض رغم ان الاب شانو لم يكن يميل الى التماس الشفاء لنفسه. وابتدأت التساعية في ٢ شباط، وانقطعت معالجة المريض خلال التساعية كلها...

في ١١ شباط ـ وهو اليوم التالي لنهاية التساعية ـ ذهب الاب شانو لاقامة القداس حسب المعتاد. وبينما كان في الايام السابقة يضطر الى الجلوس حال وصوله الى الكنيسة، ظل في ذلك اليوم راكعا مدة ١٠

دقائق قبل القداس دون ان يشعر بأي تعب. واحس بتحسن ملحوظ في صحته منذ ذلك اليوم، حتى صار في الايام القليلة اللاحقة يشترك مع الرهبان في صلاة الليل، الامر الذي لم يفعله منذ سنة ١٩٣٨. وبعد ثمانية ايام، استأنف مهمة الكاهن المناوب التي كانت تقتضي ان يظل صائما حتى الظهر طوال الاسبوع لاقامة القداس. وشرع منذئذ يشترك في جميع ممارسات الجمعية الرهبانية.

وحينما اجريت عليه فحوص طبية، اظهرت ان الداء قد تلاشى تماما. وعبّر الطبيب المعالج عن فرحه العميق وعن دهشته الكبيرة ازاء هذه الظاهرة الغريبة. واخبر رئيس الدير الجماعات الرهبانية التي اشتركت في التساعية بنتيجتها المذهلة.

وقد صار الاب شانو بعد ذلك رئيسا عاما على دير سيتو وبذل نشاطا كبيرا في خدمة الدير، وقام باسفار عديدة الى بلدان بعيدة، دون ان تصاب صحته بأذى. وقال الطبيب: ان شفاء الاب شانو لم يحدث بطريقة طبيعية ولا من جراء تدخل الطب، بل بصورة مفاجئة وفي مدة وجيزة جدا تتطابق مع المدة التي فيها اقيمت الصلوات من اجل شفائه.

وفي سنة ١٩٧٢، تخلى الاب شانو عن الرئاسة، وتطوع للخدمة الدينية في زائير وهو بصحة ممتازة، الى ان وافته نوبة قلبية مفاجئة أودت بحياته في ١٧ آب سنة ١٩٨٠.

وقد رأت الكنيسة في هذه الاعجوبة، وفي العجائب الاخرى الكثيرة التي جرت بشفاعة خادمة الرب الاخت اليزابيت، علامةً بيّنة على اصالة فضائلها وعلى اختيارها الالهي.

فعسى ان تتحقق للجميـع تلك الامنيـة التي عبرت عنها اليزابيت في مطلع حيـاتهـا الـرهبانية حينما قالت : «بودّي ان اكون صامتة وساجدة بكليتي ، لكي اتـوغـل دوما فيه الى ابعد ، فاصبح ممتلئة منه الى حد يتيح لي ان اعطيه بالصلاة لتلك النفوس المسكينة التي تجهل عطية الله . »

★★★

صلاة التقدمة
(للاخت اليزابيت الثالوث)

يا الهي ، الثـالـوث الـذي اسجـد له ، ساعدني لكي انسى نفسي تمامـا ، فأستقـر فيـك غير متزعزعة ، بل هادئة وكأن نفسي في الابدية منذ الآن . أسألك الا يتمكن شيء من تعكير سلامي أو انتزاعي منك ، ايها الدائم ، بل ان تمضي بي كلُ دقيقة الى أبعد في عمق سرك .

هبْ نفسي السـلام ، واجعلهـا سماءك ومسكنك المحبوب وموضعَ راحتك ، على الا اتركك فيها وحدك ، بل ان اكون ثمة بكليتي ، يقِظةً في ايماني ، وساجدة ومستسلمة الى عملك المُبدع .

أيها المسيح المصلوب حبا، أود ان اكون عروسا لقلبك، أودُّ ان اغمرك بالمجد وان احبك . . . حتى الموت حبا بك. غير اني اشعر بعجزي، فأسألك ان توشحني بذاتك، وان تتحد نفسي بجميع حركات نفسك، وان تغمرني وتغزوني وتقوم مقامي، لكي لا تكون حياتي سوى اشعاع لحياتك. تعالَ اليَّ كساجد ومكفّر ومخلّص.

ايها الابن الازلي، يا كلمة الهي، اريد ان اقضي حياتي في الاصغاء اليك، اريد ان اصبح كلي استعدادا للتلقّي، فأتعلم منك كل شيء، ومن خلال كل الظلمات وكل الفراغات وكل العجز، اريد ان انظر اليك دوما، وامكث تحت نورك الساطع. يا شمسي المحبوب، اسحرني لكي لا استطيع بعد الآن ان اخرج من نطاق اشعاعك.

أيتها النار المحرقة، يا روح المحبة، تعال اليَّ لكي يتحقق في نفسي مثل تجسد الكلمة، فأكون له ناسوتا آخر فيه يجدد كل سره.

وانت أيها الآب، مِلْ الى خليقتك الصغيرة المسكينة، واشملها بظلك، ولا ترَ فيها سوى الحبيب الذي فيه وضعتَ مسرتَك كلها.

يا ثالوثي، يا كل شيء لي وسعادتي، والعزلة اللامتناهية، واللانهاية التي فيها اضيع، اني استسلم اليك كفريسة. توارَ فيَّ لكي اتوارى فيك، ريثما اذهب لأشاهد في نورك لجةَ عظائمِك.

★★★

الملحق

الرياضة الروحية الاخيرة

والبحث الروحي

للاخت اليزابيت الثالوث[1] (١٩٠٦)

القسم الاول

الرياضة الروحية الاخيرة

في هذه الصفحات، تبوح لنا الاخت اليزابيت الثالوث بسر قداستها وبمثلها العليا وقد تحققت في مساء حياتها القصيرة. فهذه الكلمات الوجيزة تدخلنا الى قدس اقداس «بيت الله الصغير» كما كانت تحب ان تُدعى. فلم تبرحها قط هذه الفكرة وهي ان تكون للثالوث الاقدس «تسبحة مجد»، ومن ثمة ادت بها الى ان تحيا حياة سماوية وهي بعد على الارض، كما اوضحت ذلك غداة ابرازها النذور قائلة: «سمائي هي في الايمان مع احتمال العذاب والتضحية في سبيل ذاك الذي احبه . . .».

(١) ـ لقد نشرت هذه الرياضة الروحية مع البحث الذي يليها في الترجمة العربية في كتيب صدر في الموصل سنة ١٩٦٣، بعنوان «افكار وخواطر». وبالنظر الى نفاذه، نعيد طبعه ههنا لفائدة المؤمنين.

فكأني بالاخت اليزابيت في هذه الرياضة تحاول ان تكشف النقاب عن حالـة الطـوباويين ازاء رؤ ية الذات الالهية فتقول: «يبان لي اني اولي قلبَ الله فرحـاً لا يوصـف اذ اعـكـف في سماء نفسي على ما يقــوم به الطـوبـاويـون في السماء دونما انقطاع، فاعيش في حضن الثالوث الهادىء ولجته التي لا يُسبر غورها، معتصمة بحصن الاختلاء المنيع الذي يتكلم عنه القديس يوحنا الصليبي.»

فهاهي ذي الاخت اليزابيت الثالوث تتشبه بأبيها القديس وتسعى في تحقيق هذه الفكـرة بقـدر ما تسمـو في الفضيلة. فانها لمحت في نور الله قداستـه غير المتنـاهيـة والعمـل الذي تريد نعمته ان تجريه فينا، والاتحاد السامي الذي باستطاعتنا ان نحققه منذ الآن، ومن ثمة راحت تشلّ كل حركـة في الطبيعـة تنـافي هذا العمـل الالهي، وتلاحق الانانية الى عمق مغاورها السحيقة.

.. ففي كل يوم من ايام هذه الرياضة تتكرر الفكرة عينها مؤيدة بنص من الكتاب المقدس. فالغاية المنشودة هي هي لا تتغير، والواسطة للبلوغ اليهـا كذلـك واحدة وهي: «لم اعرف ولن اعرف شيئا سواه»... فجاءت هذه الصفحات بمثابة انشودتها المفضلة وتمهيدا «للقدوس...» الابدي في السماء.

اليوم الاول

«لم اعرف شيئا» : هذا ماكانت تردده عروس نشيد الاناشيد، بعد ان ادخلها الملك أخاديره. وهذه عبارة يجب ان تكون بمثابة نافذة تنشدها «تسبحة المجد» في هذا اليوم الاول من الرياضة، حيث يدخلها المعلم الالهي الى غور اللجة، لكي يفضي اليها بالمهمة التي تُلقى على عاتقها مدى الابدية. انه يكاشفها بهذه المهمة، لكي تتمرن عليها منذ الآن في الزمان الذي ما هو الا الابدية المبتدئة والمتقدمة دوما. «لم اعرف» (نشيد ٦/١١). اجل، اني لا اعرف ولا اريد ان اعرف شيئا الا «ان اعرفه هو... واشترك في آلامه واتمثل به في موته» (فيلبي ٣/١٠).

«فالذين اختارهم بسابق اختياره، أعدّهم قديما لان يكونوا على مثال صورة ابنه» (روم ٨/٢٩) المصلوب حبا بنا. فحينما اصبح مطابقة لهذا النموذج الالهي، انا فيه وهو فيّ، حينئذ اكمل دعوتي الابدية التي اختارني الله لها «منذ البدء»، تلك الدعوة التي سأقوم بها الى الابد، فألِج حضن الثالوث لكي اضحي تسبحةً غير منقطعة لمجده (افس ١/١٢).

«ان الله ما رآه احد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي اخبر عنه» (يوحنا ١/١٨). ويمكننا ان نردف على ذلك قولنا ان احدا لم يلج عمقَ سر المسيح الا العذراء. ويتكلم القديس بولس مرارا عديدة عن «الخبرة» (افسس ٣/٤) التي نالها في هذا السر العجيب. ولكن ما أشحبَ نورَ القديسين ازاء اضواء العذراء الساطعة. فلا يوصف

السر الذي كانت تحفظه وتتأمل به في قلبها، ويعسر على اللسان ان ينطق به وعلى اليراع ان يسطره . . . فهذه ام النعمة الالهية هي التي ستكيف نفسي لكي تكون ابنتها صورة حية وأخاذة لبكرها (قولس ١ / ١٥) ابن الآب الازلي الذي كان «تسبحة» كاملة لمجد ابيه.

اليوم الثاني

«نفسي في كفيَّ كل حين» (مز ١١٨ / ١٠٩) : هذه كانت العبارة التي يتردد صداها في نفس معلمي الالهي، فكان هادئا وقويا في وسط جميع آلامه. «نفسي في كفيَّ كل حين.» وهل يعني هذا الا امتلاك الذات التام في حضور «الهادىء»؟

وهناك نشيد آخر للمسيح بودّي ان اردّده دوما وهو: «لك احفظ قوتي» (مز ٥٨ / ١٠). ويقول لي قانوني: «ستكون قوتك في الصمت». فيبدو لي ان الاحتفاظ بالقوة للرب هو ان يحقق الانسان وحدة في كيانه كله بالصمت الداخلي، وان يجمع قواه كلها لكي يشغلها في ممارسة المحبة وحدها، وان تكون له هذه العين البسيطة التي تتيح لنور الله ان يشع فينا.

فان النفس التي تجادل «أنا» ها وتنشغل باحساساتها وتلاحق فكرةً لا طائلَ تحتها أو رغبة طارئة، انما تبعثر قواها ولا تكون موجهة الى الله بكليتها: فقيثارتها لا ترنُّ بتناغم، ولا يستطيع المعلم حينما يلمسها ان يؤدي انغاما الهية، لان فيها الكثير من العنصر البشري الذي يسبب تنافرا في النغم.

فالنفس التي مازالت تحتفظ لذاتها بشيء في داخلها، والتي لا تكون جميع قواها محصورة في الله، لا تستطيع ان تكون تسبحة مجد كاملة، ولا يتسنى لها ان تنشد دون انقطاع هذا «النشيد الكبير» الذي يتحدث عنه القديس بولس، لان الوحدة لا تسود في داخلها. فعوض ان تتابع تسبحتها ببساطة خلال الامور كلها، ترى ذاتها مضطرة دوما الى جمع أوتار آلتها المبعثرة هنا وهناك.

آه! كم ان هذه الوحدة الداخلية الجميلة ضرورية للنفس التي تروم العيش منذ الآن عيشة الطوباويين. ويخيل لي ان المعلم كان يشير الى ذلك حينما كلم المجدلية عن «الحاجة الى واحد» (لو ١٠/٤٢). وسرعان ما فهمت هذه القديسة الكبيرة مغزى كلامه، وبنور الايمان عرفت الهها المحتجب تحت ستار الناسوت، وبالصمت وتوحيد قواها «كانت تسمع كلامه» (لو ١٠/٣٩). واخالها تنشد: «نفسي في كفيّ كل حين»، أو هذه الكلمة الصغيرة: «لم اعرف».

أجل، انها ما كانت تعرف شيئا سواه. فبامكان الخلائق ان تضج وتعج حولها: «لم اعرف». وبامكان الناس ان يتهموها ويقرفوها: «لم اعرف». فلا الجاه ولا الامور الخارجية تستطيع ان تخرجها من سكوتها المقدس.

هذا هو شأن النفس التي ولجت حصن الاختلاء المقدس. انها ترى بعين مضاءة بأشعة الايمان ان الله حاضر وحيٌّ فيها، فهي كذلك تمكث حاضرة لديه ببساطة خلابة تستهوي قلبه الابوي، فيحتفظ بها لذاته مغتبطا. واذ ذاك لا يمكن ان تؤثر فيها لا الاضطرابات الخارجية

ولا الزوابع الداخلية ولا الشرف الشخصي: «لم اعرف». وبوسع الله ان يتوارى عنها او أو ان يحجب عنها نعمته الحسية: «لم اعرف». بل انها في غمرة فرحها تصرخ: «لأجله خسرتُ الاشياء كلها» (فيلبي ٣/٨).

ومن ثمة يصبح المعلم الالهي حراً في اعطاء ذاته بمقدار ما يشاء، «حسب مقياسه» (افسس ٤/٧). والنفس التي بلغت هذه البساطة وحققت هذه الوحدة، تصبح عرشا لملك الدهور، لان الوحدة عرش الثالوث الاقدس.

اليوم الثالث

«فيه قُدِّرَ لنا ما قضاه بتدبير سابق ذاك الذي يفعل كل شيء على ما ترضى مشيئته، فاصطفانا لنسبّح بمجده»(افس، ١/١١ ـ ١٢).

ان الذي يطلعنا على هذا الاختيار الالهي هو القديس بولس الذي توغل بعيدا في «السر المكتوم طوال الدهور في الله» (افسس ٣/٩). وهو الآن سيزودنا بانوار حول الدعوة التي دُعينا اليها.

«اختارنا الله فيه قبل انشاء العالم، لنكون قديسين وبغير عيب امامه بالمحبة» (افسس ١/٤).

ومن مقارنة هذين العرضين للتصميم الالهي الثابت مدى الدهور، استنتج اني اذا اردت القيام بجدارة بمهمة «تسبحة المجد»، عليّ ان ابقى «أمامه» خلال كل شيء. ويضيف الرسول: «بالمحبة»، أي بالله، «لان الله محبة» (١ يو ٤/١٦). واحتكاكي بالكائن الالهي هو الذي سيجعلني بغير عيب وقديسة في نظرته.

واعـزو هذا الامـر الى فضيلة البساطة الجميلة التي كتب عنها احد المـؤلفـين الاتقيـاء: «انهـا تولي النفس سكينـة العمق» اي الهدوء في الله اللجـة التي لا يُسـبر غورُهـا. وهذا تمهيد وصدى للراحة الابدية التي قال عنها القديس بولس: «فلنا نحن المؤمنين دخول دار الراحة» (عبر ٤/٣).

وينعم الممجَّدون براحة العمق هذه لانهم يشاهدون الله في بساطة ماهيتـه. ويقـول القـديس بولس: «انهم يعرفونه مثلما هم معروفون» (١ قور١٣/١٢)، اي بالـرؤ ية الداخلية وبالنظرة البسيطة. وهذا، حسب قول القـديس بولس ايضـا: «فـانهم يتحـولون الى تلك الصورة، وهي تزداد مجدا على مجد، وهـذا من فضـل الـرب الـذي هوروح» (٢ قور ٣/١٨). فيغدون تسبحة مجد دائمة للكائن الالهي الذي يشاهد فيهم جلالَه.

ويخيل لي ان بوسعنا ان نولي قلب الله فرحا لا يوصف حينما نعكف في سماء نفسنـا على ما يقـوم به الطـوبـاويون، فننضّم اليه بهذه المشاهدة البسيطة التي تقرّب الخليقة من حالة البرارة التي خلقها الله فيها.
«على صورة الله ومثاله» (تك ١/٢٦). فكأن اذن حلم الخالق أن يتأمل ذاته في خليقته، فيرى انعكاس جماله وكمالاته كلها فيها كفي بلور صاف وبغير شائبة. اليس هذا نوعا من امتداد مجده؟
فبالنظرة البسيطة الموحدة التي بها تحدق النفس الى الله، تجد ذاتها منفصلة وغـريبـة عن كل ما يحيـط بها، ولا سيما عن ذاتها. ومن ثمة فانها تشرق من «معرفة مجد الله»، كما يقول الرسول (٢ قور ٤/٦)، لانها تتيح

للكائن الالهي ان ينعكس فيها وان تتلقى جميع صفاته. انها تصبح حقا تسبحة تذيع مجد مواهب الله، وهي لا تفتأ تتغنى، حتى في اصغر اعمالها، بالتسبحة العظيمة، «التسبحة الجديدة» (رؤ يا ١٤/١٣) التي يهتز الله لها في اعماقه.

ان نفسا كهذه لجديرة بهذا الوصف الرائع الذي ورد في اشعيا: «يشرق نورك في الظلمة ويكون ديجورك كالظهر. ويهديك الرب في كل حين، ويشبع نفسك في الارض القاحلة، ويقوي عظامك، فتكون كجنة ريا وكمخرج مياه لا تنقطع... وانا اوطئك مشارف الارض»(اش ٥٨/١٠-١٤).

اليوم الرابع

أمس كشف لي القديس بولس النقاب قليلا، فاستطعت ان ألقي نظرةً على «ميراث القديسين في النور» (قول ١/١٢) لأرى ما دأبهم، فأحاول قدر المستطاع ان اطابق حياتي على حياتهم، فأقوم بمهمتي التي هي «تسبحة المجد».

أما اليوم، فهوذا القديس يوحنا، التلميذ الذي كان يسوع يحبه، يفتح لي بدوره ابواب «المداخل الابدية» (مز ٢٣/٧) قليلا، لكي اريح نفسي في اورشليم المقدسة، رؤ ية السلام العذبة. فيقول لي في بادىء الامر ان «لا حاجة للمدينة الى ضياء الشمس والقمر، لان مجد الله اضاءَها والحمل قامَ مقام مشعلِها»(رؤ يا ٢١/٢٣).

فان اردتُ ان يكون لمدينتي الداخلية بعض الشبه بمدينة «ملك الدهور الخالد» (١ طيم ١/١٧)، وان تتلقى نور الله العظيم، عليّ ان اطفىء كل نور آخر، ليكون الحملُ مشعلها الوحيد.

هو ذا الايمان يلوح لي بنوره الرائع. فهو وحده يقودني وينير لي السبيل للذهاب الى لقاء العريس. فالمزمّر يقول ان العريس «جعل الظلمة حجابا له» (مز ١٧/١٣). وكأنه يناقض نفسه اذ يقول في موضع آخر: «انه يلتحف بالنور كرداء» (مز ١٠٣/٢). أما ما استنتجه من هذا التضاد الظاهري، فهو انه عليّ ان اخوض في هذه الظلمة المقدسة، فاجعل في جميع قواي ليلا وخلاء، واذ ذاك الاقي سيدي، فيغمرني ذلك النور الذي يلتحف به كرداء، لانه يريد ان تكون عروسه مضاءة بنوره لاغير، وان «يكون لها مجد الله» (رؤ يا ٢١/١١).

يقال عن موسى انه كان «غير متزعزع في ايمانه وكأنه رأى اللامنظور» (عبر ١١/٢٧). ويخيل لي ان هذا يجب ان يكون موقف «تسبحة المجد» التي تريد ان تتابع نغمات شكرها خلال كل شيء، اي ان تكون غير متزعزعة في ايمانها وكأنها رأت اللامنظور، راسخة في ايمانها بمحبة الله العظيمة: «ونحن عرفنا محبة الله لنا وآمنا بها» (١ يو ٤/١٦).

ويقول القديس بولس: «ان الايمان ضمانُ الخيرات التي تُرجى وبرهانُ الحقائق التي لا تُرى» (عبر ١١/١).

فالنفس التي جمعت حواسها تحت النور الذي اطل عليها من هذه الكلمة، ماذا يعينها بعد ان تحس أو ان لا تحس، ان تكون في الظلام او ان يغمرها النور، ان تتنعم أم لا؟ وانها ليعتريها الخجل اذ تميّز بين هذه

الامـور، فتُنحي بالـلائمـة على ذاتهـا لقلة محبتها. وسرعان ما تتجه الى معلمهـا الالهي مستغيثـة به لكي ينقـذهـا ويحطم الاغـلال المتبقية فيها. «فهي ترفعه، حسب تعبير متصوف كبير، في اعلى ذروة من طود قلبها»، اي فوق المسـرات والتعـزيـات الآتية منه. فانها قد عزمت على تجاوز كل شيء بغية الاتحاد بذاك الذي تحبه.

ويبـدو لي ان ما قالـه زعيم الـرسـل: «وبـما انكم تؤمنـون فسوف تبتهجون بفرح ممجد لا يوصف» (١ بط ١/٨) يمكن ان يوجَّه الى هذه النفس غير المتزعزعة في ايمانها باله المحبة.

اليوم الخامس

« رأيت فاذا بجمـع كثـير لا يستطيـع احـد ان يحصيه... هؤلاء الـذين اتـوا من الضيق الشديد وقد غسلوا حللهم وبيَّضوها بدم الحمل. لذلـك هم امـام عرش الله يخدمـونه في هيكله نهارا وليلا. والجالس على العرش يظللهم بسرادقه. فلن يجوعوا ولن يعطشوا ولن تلفحَهم الشمس ولا السمـوم. لان الحمـل الـذي في وسـط العـرش يرعاهم ويهديهم الى ينابيع ماء الحياة، ويمسح الله كل دمعة تسيل من عيونهم » (رؤ يا٧/ ٩، ١٤-١٧).

لا غروَ أن جميـع هؤلاء المختـارين الحاملين بأيديهم سعف النخل والذين يغمرهـم نور الاله قد اجتازوا قبلا بالضيق الشديد واختبر وا «الالم العظيم مثـل البحـر» (ارميا - المراثي ٢/١٣). فقبل أن يتأملوا مجد الرب بوجوه مكشوفة (٢ قور ٣/١٨)، قد اشتركوا في هوان مسيحه. وقبل ان

يتحــولــوا من مجد الى مجد الى صورة الله، قد تشبهـوا بصـورة الكلمـة المتجسد المصلوب حبا بنا.

فلا مناص للنفس من الاشتراك حقا في آلام معلمها اذا شاءت ان تخدم الله في هيكله ليلا ونهارا، في هذا المقدس الداخلي الذي يتكلم عنه القـديس بولس حينـما يقـول: «لان هيكـل الله مقدس وهو انتم» (١ قور ١٧/٣). انهـا نفس مشـتراة، وعليهـا ان تسعى بدورهـا في شراء نفوس اخـرى. لذا فهي لا تفتأ من ان توقـع على قيثـارتها هذا اللحن: «أما انا فحـاشـا لي ان افتخـر الا بصليب ربنـا يسوع المسيح» (غلاط ٦/ ١٤)، «لاني صُلبتُ مع المسيـح» (٢/ ٩)، و«أتمّ في جسـدي ما نَقص من آلام المسيح في سبيل جسده الذي هو الكنيسة» (قول ١/ ٢٤).

«قـامت الملكـة عن يمينـك» (مـز ٤٤/ ١١): هذا هو موقف تلك الـنفس. فهي تسـير على طريق الجلجلة عن يمـين ملكهـا المصلوب والمحتقـر والمهـان. ولكن هذا الملك يبقى رغم ذلك قويا وهادئا دوما. انه يمضي الى الآلام بجـلال، لكي يفجّـر «مجـد نعمتـه»، حسب تعبـير القديس بولس الرائع (افس ١/ ٦).

انـه يريـد ان يشـرك عروسـه في عمله الخـلاصي. وطريق الآلام الذي تسلكه هو لها بمثابة طريق السعادة، ليس لانه يؤدي الى السعادة حسب، بل لان المعلم الحبيب يفهمهــا كيف يجب ان تتجاوز ما في الالم من المرارة لكي تجد فيه سلامها على غراره.

حينئـذ يمكنهـا ان تخدم الله في هيكله ليـلا ونهـارا. فلا المصـائب الخارجية أو الداخلية يمكنها ان تخرجها من الحصن المقدس حيث أدخلها

الحبيب، ولا تحس بعد بجوع أو بعطش رغم شوقها المذيب الى السعادة، اذ انها تجد قوتها في طعام سيدها: في ارادة الآب. ولا تلفحها الشمس، اي انها باتت لا تمضها الآلام. وباستطاعة الحمل ان يرعاها ويهديها الى ينابيع ماء الحياة حيث يشاء وكما يشاء، فان عينيها شاخصتان الى الراعي الذي يهديها ولا يخطر ببالها ان تلقيهما على السبيل التي تسير فيها.

وحينما ينحني الله وينظر الى هذه النفس التي تبنّاها، يلاحظ فيها وجهَ الشبه شديدا لصورة ابنه «بكر الخلائق كلها» (قول ١/١٥). انه يرى فيها واحدة من تلك النفوس التي سبق فاختارها ودعاها وبرّها. فتبتهج احشاؤه الابوية طربا ويفكر في انجاز عمله، اي في تمجيدها بنقلها الى ملكوته حيث يُتاح لها ان تنشد بغير انقطاع تسبحة مجده مدى الدهور.

اليوم السادس

«ورأيت حملا على جبل صهيون يصحبه اربعة واربعون الفا ومائة الف كُتب على جباههم اسمُه واسمُ ابيه، وسمعت صوتا آتيا من السماء كخرير مياه غزيرة أو كدويّ رعد قاصف. وجعلني هذا الصوت أتخيل لاعبين بالكنارة يضربون على كنارتهم ويرتلون انشودة جديدة بين يدي العرش... وما من احد يستطيع ان يتعلم الانشودة الا الاربعة والاربعون الفا ومائة الالف... لانهم ابكار. هؤلاء هم الذين يصحبون الحمل كيفما سار» (رؤيا ١٤/١-٤).

ان من الخلائق من هم منذ الآن من عداد هذا الجيل الطاهر مثل النـور، فيحملون من الآن على جباههم اسم الحمـل واسم ابيـه . انهم يحملون اسم الحمـل بالتشبـه والتمثـل بذاك الـذي يدعوه القديس يوحنا «الامـين والحقيقي» والـذي يظهره لنا لابسا رداءً مخضباً بالدم . فهم ايضا امناء حقيقيون ورداؤهم مخضّب بدم تضحيتهم المتواصلة . وهم يحملون اسم ابيـه ، لانـه يعكس فيهم بهاء كمالاتـه واوصـافـه الالهيـة كلهـا ، فيصبحون كأوتار تهتز وترتل التسبحة الجديدة .

انهم يتبعون الحمل كيفما سار، ليس على الطريق الرحبة والسهلة حسب، بل في المسـالـك الوعرة.والشائكة ايضا ، لانهم ابكار، أي أحرار منـزهـون ومتجـردون . . . «فهم منـزّهون عن كل شيء الا عن المحبة» ، منـفـصلون عن كل شيء ولاسيـما عن ذواتهم ، مجردون من كل شيء في النظـام الفـائق الطبيعـة كما في النظـام الطبيعي . اي تجرد وأي موت عن الـذات يقتضي هذا الامـر! فلنقـل مع القـديس بولس : «إني اموتُ كلَّ يوم» (١ قور ١٥ / ٣١) .

وقـد كتب هذا القـديس الكبـير ايضـا الى اهـل قولسي يقـول : «فانكم قد متم وحياتكم محتجبة مع المسيح في الله» (٣/٣) . فينبغي اذن ان نكـون امـواتا ، اذ بدون هذا الشرط قد نكون محتجبين في الله احيانا ، ولكننـا لا نعيش في الله بنـوع اعتيـادي ودائم ، لان كل الاحسـاسـات والاغراض الشخصية وما شاكلها تداهمنا وتخرجنا من حوزة الله .

فالنفس التي تحدق الى معلمهـا الالهي بالعـين البسيطـة التي تنير الجسد كله تُصان من «مصدر الاثم الذي فيها» (مز ١٧ / ٢٦) اذ ان الرب

قد ادخلها الى المنزل الرحب الذي ليس سوى الله ، وهناك كل شيء طاهر ومقدس.

فما اسعد الموت في الله! وما اعذب الاستسلام الى الخير المحبوب! انها لحلاوة تنفجر بصرخة صادرة عن اعماق القلب: «قد صُلبت مع المسيح. فما انا احيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيّ. واذا كانت لي حياة بشرية، فانها بالايمان بابن الله الذي احبني وضحّى بنفسه من اجلي» (غلاط ٢/١٩-٢٠).

اليوم السابع

« السموات تنطق بمجد الله» (مز ١٨/٢). فما تنطق به السموات هو مجد الله. وبما ان نفسي سماء اعيش فيها بانتظار اورشليم العليا، فيجب على هذه السماء ان تنطق هي ايضا بمجد الله السرمدي وحده.

«النهار للنهار يعلن أمره» (مز ١٨/٣). فكل الانوار وكل التعاليم التي يمنحها الله نفسي ان هي الا هذا النهار الذي يعلن رسالة مجده الى النهار. «لان اوامر الرب وضاءة تنير العيون» (مز ١٨/١٩). فامانتي في تطبيق هذه الاحكام الالهية وكل اوامرها الداخلية تجعلني اعيش في النور: وهذه ايضا رسالة تعلن مجده.

وهو ذا الامر العجيب الذي يفيض عذوبة: «الرب الذي ينظر اليك يستنير» (مز ٣٣/٦)[1]. فالنفس التي تتأمل خلال كل شيء،

(١) جاء في الترجمة الجديدة للمزامير - طبعة القدس ١٩٨١ : «انظروا اليه تشرق وجوهكم».

بعمق نظرها الداخلي، الهها المنزّه عن كل ما سواه، تصبح مشرقة، وهي من ثمة نهار يعلن لنهار رسالة مجده، و«ليل لليل يذيع خبره» (مز ١٨ / ٣). وهذا امر يفعمني تعزية، اذ ان عجزي وسأمي وظلامي واخطائي نفسها تذيع مجد العلي. وعذاباتي النفسية أو الجسدية كذلك تذيع مجد الله.

وكان داود ينشد: «بماذا اكافىء المولى على كل ما اتاني من افضال؟ سآخذ كأس الخلاص» (مز ١١٥ / ١٢ - ١٣). فاذا اخذت هذه الكاس المصبوغة بدم معلمي الالهي، وفي غمرة شكري مزجت دمي بدم الذبيحة المقدسة التي تشركه في لا نهايتها، حينذاك يمكن هذه الكاس ان تولي الآب مجدا عظيما، فيصبح عذابي قولا يذيع مجد العلي.

«فهناك (أي في النفس التي تذيع مجده) نصب للشمس خيمة «فالشمس هي الكلمة، هي العريس. واذا وجد نفسي خالية ومجردة من كل شيء الا من هاتين الكلمتين: محبته ومجده، فهو يختارها لتكون خدرا يدخله «كالجبار في السباق»، ولا يمكنني «ان اتوارى عن حره» (مز ١٨ / ٦-٧). فهو تلك «النار الآكلة» (عبر ١٢ / ٢٩) التي تنجز التحويل السعيد الذي وصفه القديس يوحنا الصليبي بقوله: «كل واحد يبدو وكأنه الآخر، الا ان كليهما ليسا الا واحدا» يذيع تسبحة مجد الآب.

اليوم الثامن

«وهم لا ينفكّون يقولون ليل نهار: قدوس، قدوس، قدوس الرب الاله المهيمن: كان وكائن ويأتي... ويجثون... ويسجدون...

ويلقون اكاليلهم عند العرش قائلين: لك يحق ياربنا والهنا ان تلقى المجد والاكرام والقدرة . . . » (رؤ يا ٤/٨، ١٠، ١١).

فكيف اقتدي في سماء نفسي بعمل القديسين هذا المستمر في سماء المجد؟ كيف اتابع هذه التسبحة وهذا السجود غير المنقطعين؟ هوذا القديس بولس يُغيثني وينير ني بما كتبه الى اهل افسس «ليؤ يدكم (الآب) بروحه على مقدار سعة مجده، ليقوى فيكم الانسانُ الباطن، وان يقيم المسيح في قلوبكم بالايمان، حتى اذا ما تأصلتم في المحبة وأسستم عليها . . . » (٣/١٦ - ١٧). لئن اتأصل وأتأسس في المحبة، فذلك هو الشرط الاول لكي اقوم حسنا بمهمة تسبحة المجد.

فالنفس التي تدخل وتستقر في اعماق الله (١ قور ٢ / ١٠) وتعمل كل شيء «به ومعه وفيه» بنظرة صافية تجعلها شبيهة بالكائن البسيط، انما تتأصل أكثر فأكثر في ذاك الذي تحبه بكل رغبة من رغباتها وبكل حركة من حركاتها وبكل عمل من اعمالها، مهما كانت اعتيادية. فكل ما فيها يعطي المجد لله القدوس. وكأني بها تصبح «قدوسا» أبديا وتسبحة مجد غير منقطعة.

«انهم يجثون ويسجدون ويلقون اكاليلهم». ففي بادىء الامر، على النفس ان تجثو، أي ان تغوص في عمق عدمها وتنزل الى حيث تجد «السلام الحقيقي غير المقهور والكامل الذي لا يعكر صفاءه شيء، فتلقي بنفسها الى هوة هي من العمق بحيث انه ليس من يذهب ويفتش عنها هناك»، كما يقول احد المتصوفين. وحينئذ يمكنها ان تسجد.

السجود! . . . ويا لها من كلمة سماوية! يبدو لي اننا يمكننا تحديده بقولنا انه انخطاف المحبة. فحينما تُؤخذ المحبة بجمال المحبوب وبقوته وعظمته اللامتناهية، تسقط في انخذال وفي سكوت شامل عميق، ذلك السكوت الذي يصفه المزمر بقوله: «السكوت هو تسبحتك». اجل انها اجمل تسبحة، لانها تلك التي يُترنَّم بها منذ الازل في حضن الثالوث الهادىء، وهي ايضا آخر جهد تبذله النفس التي تضيق ذرعا بوصف الحبيب، فتبقى صامتة لا تنبس ببنت شفة.

وهناك مزمور يقول: «مجدوا الرب الهنا واسجدوا امام جبل قداسته، لان الرب الهنا قدوس» (مز ٩٨/ ٩)، وآخر يقول: «يسجدون له دائما من اجل اسمه» (٧١/ ١٥). فالنفس التي تختلي بهذه الافكار وتستوعبها «بفكر الرب» (روم ١١/ ٢٤) تعيش في سماء مسبقة فوق الاشياء التي تزول وفوق السحب وفوق ذاتها.

فهي تعرف ان الذي تسجد له يملك في ذاته كل سعادة وكل مجد، فتلقي اكليلها في حضوره مثل الطوباويين، وتحتقر نفسها وتنسى ذاتها وتجد سعادتها في سعادة معبودها بين كل عذاب والم، لانها تركت ذاتها، بل تحولت الى شخص آخر. وفي هيئة السجود هذه، تشبه النفس تلك الآبار التي يتكلم عنها القديس يوحنا الصليبي والتي تقبل المياه المنحدرة من لبنان. ويمكننا ان نقول عن تلك النفس: «ان جداول النهر تفرح مدينة الله» (مز ٤٥/ ٥).

اليوم التاسع

«كونوا قديسين لاني انا الرب الهكم قدوس» (احبار ١٩ / ٢) . فمن ذا الذي يمكنه ان يصدر أمراً كهذا؟ انه اوحى لنا باسمه ، هذا الاسم الذي ينفرد به ، والذي لا يملكه احد سواه : «فقال الله لموسى : انا هو الكائن» (خروج ٣ / ١٤)،الحي وحده ومصدر الكائنات كلها : «اذ به نحيا ونتحرك ونوجد» (اع ١٧ / ١٨) .

« كونوا قديسين لاني انا قدوس » . يبدو لي انها الارادة عينها التي اظهرها في بدء الخليقة حينما قال : «لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا» (تك ١ / ٢٦) . ان رغبة الخالق هي دوما ان يشرك ويوحد خليقته معه .

وفي هذا الصدد يقول القديس بطرس : «اننا شركاء الطبيعة الالهية» (٢ بط ١ / ٤) . ويوصينا القديس بولس ان نكون «حافظين بداءة القيام فيه» (عبر ٣ / ١٤) . ويقول التلميذ الحبيب بدوره : «ايها الاحباء ، نحن منذ الآن ابناء الله ، وما كُشف لنا بعد عما نصير اليه ، نحن نعلم اننا نصبح عند هذا الكشف أشباهه ، لاننا نراه كما هو. من كان يرجو منه هذا الرجاء ، طهرَ نفسه كما انه هو طاهر» (١ يو ٣ / ٢-٣) .

فيبدو ان مقياس ابناء محبة الله هو ان يكونوا قديسين كما ان الله قدوس . الم يقل المعلم : «كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل» (متى ٥ / ٤٨)؟ وحينما وجه الرب الكلام الى ابراهيم ، قال له : «اسلك امامي وكن كاملا» (تك ١٧ / ١) . فهذه وسيلة للبلوغ الى الكمال الذي يطلبه منا ابونا السماوي . والقديس بولس ، بعد ان غاص في لجة التدابير

الالهية، يطلعنا على ذلك بقوله: «اختارنا (الله) فيه قبل انشاء العالم لنكون عنده قديسين وبلا عيب في المحبة» (افسس ١ / ٤). فعلى انوار تعاليم هذا القديس سأسير قدما في الطريق البديعة الحافلة بحضور الله، حيث تسير النفس «وحيدة مع الوحيد»، وتقودها «قوى الخلاص التي في يمينه» (مز ١٩ / ٧). اذ انه «بريشه يظللك... فلا تخشى في الليل هولاً، ولا سهما يطير في النهار، ولا وبا يسري في الدجى، ولا داهية تهلك ظهرا» (مز ٩٠ / ٤-٦).

«فانبذوا عنكم سيرتكم الاولى، واخلعوا الانسان القديم الذي تفسده الشهواتُ الخادعة، وتجددوا روحا وذهنا، والبسوا الانسان الجديد الذي خُلقَ على صورة الله في البر وقداسة الحق» (افس ٤ / ٢٢ - ٢٤).

... هوذا قد اختُط الطريق، فما علينا الا ان نتجرد من ذواتنا لكي نسير فيه كما يريد الله. التجرد، الموت عن الذات ونسيانها: اليست هذه فكرة المعلم الالهي حينما قال: «من اراد ان يتبعني، فليزهد في نفسه ويحمل صليبه ويتبعني» (متى ١٦ / ٢٤)؟

ويقول الرسول: «ان حييتم حياة الجسد تموتون، اما اذا أمتُّم بالروح اعمال الجسد فستحيون» (روم ٨ / ١٣). هذا هو الموت الذي يطلبه الله، وعنه يقول: «قد ابتلعَ الظفرُ الموت» (١ قور ١٥ / ٥٤)، و«اكون هلاكَك أيها الموت» (هوشع ١٣ / ١٤)، وكأني بالله يقول: ايتها النفس ابنتي المحبوبة، انظري اليّ فتنسي ذاتك، انسابي بكليتك في كياني وهلمي فموتي فيّ لكي احيا انا فيك!...

اليوم العاشر

«كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل» (متى ٥/٤٨).

حينما يُسمعني معلمي الالهي هذه الكلمة في اعماق نفسي، اخاله يطلب الي ان اعيش مثل الآب في «حاضر ابدي»، دون قبل وبعد، بل بكليتي في وحدة كياني في هذا «الآن» الابدي.

وما عساه ان يكون هذا الحاضر؟ هوذا داود يجيبني: «يسجدون له من اجل ذاته» (مز ٧١/١٥). وكأني به يطلعني على هذا الحاضر الابدي الذي يجب على تسبحة المجد ان تحيا فيه. ولكي تكون صادقة في موقفها هذا، فيتاح لها ان تنشد: «كي اوقظ الاسحار» (مز ٥٦/٩) يجب ان يكون بوسعها ان تقول مع القديس بولس: «من اجله خسرتُ كلَّ شيء» (فيلبي ٣/٨)، أي من اجله، ولكي استطيع السجود له دائما، قد انعزلت وتجردت وانفصلت عن ذاتي وعن الاشياء كلها في النظام الطبيعي، وحتى عن مواهب الله في النظام الفائق الطبيعة. فان النفس التي لا تكون متلاشية ومعتقة من ذاتها، ستكون حتما تافهة وطبيعية احيانا، وهذا ما لا يليق بابنة الآب وعروس المسيح وهيكل الروح القدس.

ففي سبيل تلافي هذه الحياة الطبيعية، على النفس ان تكون مستيقظة في ايمانها وشاخصة بنظراتها الرقيقة الى معلمها الالهي. واذ ذاك يمكنها ان تسير «على براءة وجدانها في داخل بيتها»، كما ينشد المزمر (مز ١٠٠/٢)، وتسجد ابدا لالهها لاجل ذاته، فتعيش بذلك على صورته في الحاضر الابدي الذي يحيا فيه.

« كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل» . ويقول القديس ديونيسيوس ان الله هو «المتوحد الاكبر» . ويطلب اليَّ معلمي ان اقتدي بهذا الكمال، وان اكرمه بكوني منعزلة كبيرة . فالكائن الالهي يعيش في عزلة ازلية عظيمة، ولا يخرج منها، مع كونه يهتم باحتياجات خلائقه . فانه لا يخرج من ذاته قط، وهذه العزلة ليست سوى لاهوته المجيد .

ولئلا يخرجني شيء من هذا الصمت الداخلي الجميل، عليّ ان احقق في ذاتي تلك العزلة وذلك الانفصال وذلك التجرد، وعبثا احاول ان اصبح منعزلة ان لم تكن اشواقي ومخاوفي وافراحي وآلامي وما ينجم عنها، متجهة كل الاتجاه نحو الله، واذا لم اخلد الى الهدوء ولم اخمد قواي وأوحد كياني، أراني فريسة مستساغة للضوضاء :

«اسمعي يا بنتُ وانظري وأرهفي أذنك . انسي شعبك وبيت ابيك، فيصبو الملك الى حسنك» (سز ٤٤/١١ ـ ١٢) . يبدو لي ان في هذا الكلام دعوة صريحة الى السكوت : اسمعي . . . ارهفي اذنك . . . ولكن لكي اسمع، يترتب عليّ ان انسى بيت ابي، أي كل ما يتعلق بالحياة الطبيعية التي عنها يتكلم القديس بولس حينما يقول : «ان حييتم حياة الجسد تموتون» (روم ٨/١٣) . ولكن الاصعب من ذلك هو ان ننسى شعبنا، هذا العالم الذي يكتنفنا والذي يؤلف جزءا من كياننا، هذه الاحساسات والذكريات والانفعالات . . . ، وبكلمة واحدة علينا ان نتخلى عن «انا» نا وننساه . وحينما تصير النفس الى هذا التجرد، وتتحرر من الوشائج التي تربطها بانانيتها، حينذاك يصبو الملك الى حسنها . لان قوام الجمال بالوحدة في التناسق، وهذا امر يتحقق بأعلى درجة في الله .

اليوم الحادي عشر

«الى رحاب الفرح أخرجني، خلّصني لانه يحبني» (مز ١٧ / ٢٠).

لما القى الخالق نظرة على خليقته والفاها مختلية في عزلتها الداخلية وقد خيّم السكوت على كيانها، هام بجمالها فأدخلها الى العزلة الكبيرة واللامتناهية، الى الرحاب التي يذكرها المزمر. وهذا الموضع ليس الا الله نفسه: «ادخل في جبروت السيد الرب» (مز ٧٠/١٦).

الم يقل الرب على لسان نبيه هوشع: «آتي بها الى البرية واخاطبُ قلبَها» (٢ / ١٤)؟ فها هي ذي النفس تدخل العزلة الرحبة حيث يسمعها الله صوته: «ان كلام الله حي ناجع، أمضى من كل سيف ذي حدين، يصل في نفاذه الى ما بين النفس والروح والاوصال والمخاخ» (عبر ٤/١٢).

فكلمة الله هي التي تحقق رأسا هذا التجرد في النفس، لانها تستطيع ان تنجز وتخلق ما توحي به، شريطة ان تكون النفس راضخة ومستسلمة الى عملها الخلاق.

ولا يكفي سماع هذه الكلمة حسب، بل على النفس ان تحفظها فتتقدس بالحق حسب رغبة المعلم الالهي: «قدّسهم بحقك، ان كلمتك هي الحق» (يو ١٧/١٧). ألم يَعد من يحفظ كلامه قائلا: «ابي يحبه واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا» (يو ١٤/٢٣)؟

فالنفس التي تحب الرب بالحق وتحفظ كلمته، تصبح مقرا للثالوث الاقدس كله. وما ان ادركت غناها حتى تدعوها جميع الافراح، الطبيعية

منهـا والفـائقـة الطبيعـة، الى العـودة الى ذاتهـا لكي تنعم بالله الخير الجوهري الذي اصبح الآن في حوزتها. واذ ذاك لا تعتم النفس ان تحصل على التشابه مع الكائن السرمدي، كما يقول القديس يوحنا الصليبي.

«كـونـوا كاملين كما ان ابـاكم السماوي هو كامـل». ولكن هوذا القـديس بولس يقـول لي ان الله «يفعل كل شيء على ما ترضى مشيئته» (افس ١ / ١١). اليست هذه دعوة يوجهها اليّ المعلم الالهي لكي «افعل انا ايضا كل شيء على ما ترضى مشيئتي»، فلا اندفع وراء حواسي، ولا انقاد الى حركات الطبيعة ونزواتها بل ان تقودني ارادتي الموجهة الى الله؟ ولكي تكون هذه الارادة حرة، عليّ ان ادمجها في ارادة الله، فاصبح اذ ذاك «منقـادة الى روح الله» (روم ٨ / ١٤)، فلا اعمـل الأ ما هو الهي وازلي. وهكذا يتاح لي أن أحيا في هذا العالم في حاضر ابدي مثل حبيبي السرمدي.

اليوم الثاني عشر

«الكلمـة صار بشـرا فسكن بيننـا» (يـز ١ / ١٤). سبق الله فقال: «تقدسوا فاني انا قدوس». ولكن أنَّى للخليقة ان تقتدي به وهو مختفٍ في علياءِ سمائه؟ انها تصبو الى نموذج تتجسد فيه القيم الخالدة، فتحيا حياته وتقتفي آثاره، فتتحرر من ادران الحياة الحاضرة وتسمو اليه وتتقدس بقدأسته.

«لاجلهم اقـدس ذاتي، ليكـونـوا هم ايضـا مقـدسين بالحق» (يو ١٧ / ١٩). فانا الآن امام السر الخفي عن الدهور والاجيال، سر المسيح

الـذي صارلنـا «رجـاء المجد» (قول ١ / ٢٧)، كما يقول القديس بولس. ويضيف هذا الـرسـول انـه اوتي معرفة هذا السر (افس ٣ / ٤). فعليّ ان اتخـذه لي رائـدا يقـودني الى معرفة محبة المسيح يسوع الى تفوق كل معرفة (افس ٣ / ١٩).

وبـادىء دي بدء يقـول لي الـرسـول ان المسيـح سلامي (افس ٢ / ١٤) وان «به لي سبيلا الى الآب» (افس ٢ / ١٨)، فقد شاء الآب ان يحل به الكـمال، وبـه شاء ان يصـالـح كل موجـود. . . سواء في الارض والسمـوات. فهـو الـذي حقق السـلام بدمـه على الصليب» (قـول ١ / ١٩-٢٠). ويـواصـل الرسول قوله: «فيه تدركون الكمال. . . لانكم دُفنتم معه في المعمودية، وأُقمتم معه ايضا، لانكم آمنتم بقدرة الله الذي احياكم معه وصفح لكم عن جميع زلاتكم، ومحا ما كان عليكم من صك للوصـايـا، والغـاه مسمـرا ايـاه على الصليب، وخلعَ اصحـاب الرئاسة والسلطـة وعـاد بهم في ركبـه ظافـرا» (قـول ٢ / ١٠، ١٢-١٥)، وذلـك «ليجعلكم في حضرته قديسين لا ينالكم عيب ولا لوم» (قول ١ / ٢٢).

هذا هو العمل الذي ينجزه المسيح في كل نفس ذات ارادة صالحة، وهو العمل الذي تدفعه محبته المفرطة الى اجرائه في نفسي ايضا.

اجـل، انـه يريـد ان يصبـح سلامي، حتى لا يقـوى شيء على انتزاعي من حصن الاختلاء المنيع. وهناك، في مأمن من ضوضاء العالم، يضمني الى الآب، فأبقى ثابتـة مطمئنـة في حضـرتـه وكأن نفسي في الابـديـة. فانـه بدم صليبه يسالم كل شيء في سمائي الصغيرة لكي تغدو مستقـرا للثـالـوث الاقـدس. . . ويملأني من ذاته ويخفيني فيها وينعشني بحياته: «حياتي هي المسيح» (فيلبي ١ / ٢١).

حتى وان سقطت كل حين، فاني استنجده بايمان واثق ليقيلني من عثـرتي . واني لعلى يقـين من انـه يغفـر لي ويمحو كل شيء بغيرة محبته . وبـالاضـافـة الى ذلك، فانه يحررني من شقائي وينجيني من بؤسي ومن كل ما يضاد عمله الالهي . فتضحي اذ ذاك قواي اسيرة له ومغلوبة على أمـرهـا . فاختفي فيـه، ويحق لي ان اقـول : «فـما انـا احيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيّ» (غلاط ٢ / ٢٠)، وسأكون «قديسة ونقية بغير عيب» امام عيني الرب .

اليوم الثالث عشر

«ويجمـع في المسيـح كل شيء» (افس ١ / ١٠) . هنا ايضا استرشد انوار القديس بولس الذي اوغل في مشورة الله العظيمة، فآلى على نفسه ان يجدد كل شيء في المسيح .

ولكي استـوعب هذا التصميم الالهي اراني بحـاجـة ايضـا الى مسـاعـدة الرسول الذي يبادر الى نجدتي ويسنُّ لي قانونا اسير بموجبه : «اسلكوا في الرب يسوع وتأصلوا فيه وتأسسوا عليه واعتمدوا على الايمان الذي تلقيتموه واكثروا من الشكر» (قول ٢ / ٦-٧) .

«اسلكـوا في الـرب يسـوع» . يبـدو لي ان هذا يعني ان اخـرج من ذاتي وانسى ذاتي واتخلى عنهـا، لكي اتغلغـل فيـه في كل دقيقة وأتأصل فيــه بعمق بحيث يتسنى لي في كل حدث أو امـر ان اطلق هذا التحـدي واقول : «من يفصلني عن محبة المسيح ؟» (روم ٨ / ٣٥) .

فمتى ما كانت النفس متأصلة في المسيح بحيث تكون جذورها قد انغمست فيه، حينذاك يتدفق النسغ الالهي فيها بغزارة ويفني ما تبقى فيها من الحياة الطبيعية الناقصة والتافهة» حتى تبتلع الحياة ما هو زائل فينا»، كما يقول الرسول (٢ قور ٥/٤).

هكذا فان النفس التي تجردت من ذاتها وتوشحت بيسوع المسيح لا تخاف بعد من احتكاكها بالخارج، ولا تخشى الصعوبات الداخلية التي تتراكم عليها. فهذه الامور التي تنتابها انما تزيدها ثباتا في محبة معلمها، ولم تعد لها موانع في سيرها اليه. فانها مستعدة «للسجود له دوما لاجل اسمه» في كل شيء ورغم كل شيء. كيف لا وقد اخلت ذاتها وتحررت منها ومن كل شيء، فتهيأ لها الآن ان تنشد مع المزمر: «اذا اصطفَّ عليَّ عسكر فلا يخاف قلبي، وان نشبَ عليّ قتال بقيتُ آمنا مطمئنا... لانه في خيمته يخبئني» (مز ٢٦/٣، ٥). وليست هذه الخيمة سواه. ويخيل لي ان هذا ما يريد القديس بولس ان يقوله بهذه العبارة: «تأصلوا في المسيح».

ولكن كيف نكون «متأسسين عليه؟» هوذا الملكِ المزمِّر ينير لنا السبيل بقوله: «وعلى الصخرة يُعليني، لذا يرتفع رأسي على اعدائي من حولي» (مز ٢٦/٥ ـ ٦). ويخيل لي ان هذا رمز للنفس المتأسسة على يسوع المسيح. فانه الصخرة التي عليها ترتفع النفس فوق ذاتها والحواس والطبيعة، فوق التعزيات والاحزان، وفوق كل ما ليس الله وحده. وهناك، في حوزة الله، تقهر النفس ذاتها وتتجاوز ذاتها وكل الاشياء.

ويوصيني القديس بولس ان اكون ايضا «مثبتة في الايمان»، في هذا الايمان الذي لا يجيز للنفس ان تتوانى، بل يجعلها يقظةً تحت نظرة المعلم ومصغية بكليتها الى كلمته الخلاقة. انه ايمان حيّ «بالمحبة العظمى» يفسح المجال لله ان يغمر النفس بملء حبه.

اخيرا يريد مني الرسول ان «اكثر من الشكر» الذي به ينتهي كل شيء. «اشكرك يا ابتاه!» (يو ١١/٤١). هذا ما كانت تنشده نفس المسيح، وهو يحب ان يسمع صداه في نفسي. ولكن يبدو لي ان التسبحة الجديدة التي تسحر قلب الهي هي تسبحة نفس متجردة من ذاتها، اذ فيها يمكن ان تنعكس ماهيته كلها وان يفعل ما يشاء. انها له بمثابة كنارة مهيأة لايقاعه متى ما شاء، وكل مواهبها بمثابة أوتار ترن منشدة «تسبحة مجده» ليل نهار.

اليوم الرابع عشر

«أعدُّ كلَّ شيء خسرانا من اجل الربح الاعظم، الا وهو معرفة ربي يسوع المسيح. من اجله خسرتُ كل شيء، وعددت كل شيء نفاية لاربح المسيح، وأكون فيه، فلا يكون برّي من الشريعة، بل البر الذي هو من الايمان بيسوع المسيح. واذا تم لي ذلك، عرفته وعرفت قوة قيامته وشاركته في آلامه فتمثلت به في موته» (فيلبي ٣/٨ ـ ١٠).

«اني اسعى لعلي استولي كما استولى عليّ يسوع المسيح... انما يهمني امر واحد، وهو ان انسى ما ورائي واتمطى الى الامام، فأسعى الى الغاية، الى الجائزة التي يدعونا الله اليها... في المسيح يسوع» (فيلبي ٣/١٢ ـ ١٤).

غالبا ما كشف لنا الرسول عن عظمة هذه الدعوة. فهو يقول: «لقد اختارنا الله قبل انشاء العالم، لنكون عنده قديسين بلا عيب في المحبة» (افس ١ / ٤)، و«قدَّر لنا ما قضاه بتدبير سابق، ذاك الذي يفعل كل شيء على ما ترضى مشيئته، فاصطفانا لنسبّح بمجده» (افس ١ / ١١ - ١٢).

ولكن كيف نجيب الى عظمة هذه الدعوة؟

هوذا السر: «ان الحياة عندي هي المسيح» (فيلبي ١ / ٢١)، «فما انا احيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيَّ (غلاط ٢ / ٢٠). عليّ اذن ان اتحول الى يسوع المسيح. وهذا ما اتعلمه ايضا من القديس بولس الذي يقول: «ان الذين اختارهم بسابق اختياره، أعدهم قديما ليكونوا على صورة ابنه» (روم ٨ / ٢٩)، فيترتب عليّ من ثمة ان أتأمل هذا النموذج الالهي واتمثل به الى حد يمكّنني من تعبيره دوما امام عيني الآب.

واسمع هذا المثال الالهي يقول لي حين دخوله الى العالم: «هاءنذا آتٍ اللهمَّ لأعمل بمشيئتك» (عبر ١٠ / ١٩). ويبدو لي ان هذه الصلاة من شأنها ان تكون مثل نبضات قلب العروس: «ها نحن ايها الآب لنعمل بمشيئتك». ولقد صدق المعلم في تقدمته الاولى هذه، فأتت حياته كلها نتيجة لها: «ان طعامي هو ان اعمل بمشيئة الذي ارسلني» (يو ٤ / ٣٤). وهذا يجب ان يكون ايضا طعام العروس والسيف الذي يقربها كذبيحة.

«ان امكن الامر، فلتبتعد عني هذه الكأس ولكن لا كما انا اشاء، بل كما انت تشاء» (متى ٣٦/٣٩): هذا ما تردده النفس وهي خاضعة لارادة الآب الذي عرفها فيصلبها مع ابنه الوحيد، وبقلب طافح فرحا تذهب الى كل تضحية مع معلمها.

«نلت آياتك ميراثا خالدا، وانها انشراح لصدري» (مز ١١٨/١١١): هذا ما كانت تنشده نفس معلمي، وهذا ما يجب ان يكون صداه مدوّياً في نفس العروس. فانها بامانتها الدائمة لهذه الوصايا الخارجية أو الداخلية يتسنى لها ان تؤدي الشهادة للحق، وان تقول: «ان الذي ارسلني هو معي، لم يتركني وحدي، لاني اعمل دائما ما يرضيه» (يو ٨/٢٩). فهي لا تتركه قط، وبوسعها بالاحتكاك الشديد معه ان تشع تلك القوة الخفية التي تخلص النفوس. وهي اذ تكون متجردة ومتحررة من ذاتها ومن كل شيء، سيتاح لها ان تقتفي آثار المعلم على الجبل، لكي تقوم معه، في اعماق نفسها، «بصلاة الله» (لو ٦/١٢).

وهي دوما، مع الساجد الالهي الذي اصبح التسبحة العظمى لمجد الآب، «تقرب الى الله على يده ذبيحة الحمد في كل حين، اي بنات الشفاه المسبِّحة لاسمه» (عبر ١٣/١٥). وهي، كما ينشد المزمر: «تخبر بروائع آياته، وتتحدث ببالغ عظمته» (مز ١٤٤/٦).

وحينما تحل ساعة الذل والهوان، ستتذكر تلك الكلمة الوجيزة: «اما يسوع فكان صامتا» (متى ٢٦/٦٣)، وتصمت هي ايضا: «محتفظة بقوتها للرب» (مز ٥٨/١٠)، أي تلك القوة التي تستمدها من الصمت. وعندما يحين أوان الخذلان والاهمال والقلق الذي دفع المسيح الى اطلاق

تلك الصرخة : «لماذا تركتني؟ (متى ٢٧/ ٤٦) ستتذكر هذه الصلاة : «ليكون فيهم فرحي التام» (يو ١٧/ ١٣)، فتجرع حتى الثمالة «الكأس التي اعدها الآب » (يو ١٨/ ١١) وتجد في مرارتها عذوبة الهية . وبعد ان تكون النفس قد كررت غالبا هذه الكلمة «انا عطشان» (يو ١٩/ ٢٨) الى امتلاكك في المجد، تلفظ انفاسها وهي تردد: «قد تم» (يو ١٩/ ٣٠)، «بين يديك استودع روحي» (لو ٢٣/ ٤٦)، فيبادر الآب وينقلها الى ميراث مجده حيث «بنوره تعاين النور» (مز ٣٥/ ١٠) . وكان داود ينشد في هذا الصدد قائلا : «اعلموا ان الرب يصنع الآيات لأصفيائه»(مز ٤/ ٤) . . . اجل، لقد تمجّد قدوس الله في هذه النفس، لانه قد افنى فيها كل شيء لكي يوشحها بذاته، فجاءت حياتها مطابقة لكلمة الساعي : «له ينبغي ان ينمو ولي ان انقص» (يو ٣/ ٣٠) .

اليوم الخامس عشر

هناك بعد يسوع المسيح، وعلى البون بين اللامتناهي والمتناهي، خليقة اضحت تسبحة مجد عظيمة للثالوث الاقدس . فقد تجاوبت بكليتها مع الاختيار الالهي الذي طالما تكلم عنه الرسول . انها كانت دوما طاهرة ونقية حقا وبغير عيب امام الله القدوس .

فان نفسها من البساطة بحيث تستحيل مباغتة حركاتها . فكأني بها تمثل على الارض حياة الكائن الالهي البسيط . فهي من السطوع والشفافية بمكان حتى لتخالها النور . ومع ذلك فهي ليست سوى مرآة «شمس العدل» .

«كـانت البتـول تحفـظ ذلـك الكـلام كله في قلبهـا» (لو٢ / ١٩ ، ٥١) . فكأني بهذه الكلمات الـوجيـزة تعـبر عن تاريـخ العـذراء كله . انها عاشت في قلبها وفي عمق لا يمكن النظر البشري ان يبلغ اليه .

يا ما اجمـل مريم وهي تسـرع الى جبـال يهوذا لاداء واجب المحبة نحو نسيبتها اليصابات ، وما ابهاها وهي تقطع تلك المسافة ملتحفة ببهاء يعجز اللسان عن وصفه! انها بكليتها اختلاء مع ابن الله الذي تحمله بين جنباتها . وصلاتها كانت على غرار صلاته : «ها انا ذي . من؟» امة الرب (لو ١ / ٣٨) وآخر خلق الله ، هي . . . امه!

ومـا اصـدق هذا التـواضـع ! انهـا كانت دومـا تنسى ذاتها وتجهلها وتتحـرر منهـا ، ومن ثمـة يحق لها ان تنشـد : «ان القـديـر صنع اليّ امورا عظيمة . . . سوف تهنئني بعد اليوم جميع الاجيال» (لو ١ / ٤٨ ـ ٤٩) .

انها سلطانة العذارى وسلطانة الشهداء ، اذ سينفذ في قلبها سيفُ الوجع القاسي (لو٢ / ٣٥) : كل شيء عندها يحدث في الداخل!

كم كان مرآهـا جميـلا عبر استشهادها المديد ، وهي ملتحفة جلالا يلهم القوة والوداعة في آن واحد . فقد تعلمت من الكلمة كيف يجب أن يتألم أولئـك الـذين اختارهم الآب ضحايا ، فعزم على اشراكهم في عمل الفـداء العظيم ، وسبق فعـرفهم واختارهم ليكونوا بشبه مسيحه المصلوب حبا بنا .

فها هي ذي منتصبة عند اقدام الصليب ، وتدل وقفتها على بطولة لا تُضاهى . واني لاسمع صوت معلمي المدنف وهو يقول : «هذه امك ،

(يو ١٩ / ٢٧) . فما اسعدني ان تكون العذراء أمي ! اما الآن وقد رجع الوحيد الى ابيه ، فعهد اليّ مهمة القيام عوضه على الصليب لكي اتم في ذاتي ما نقص من آلام المسيح في سبيل جسده الذي هو الكنيسة . واني لأرى العذراء واقفة بجانبي لكي تعلّمني كيف اتألم مثله ، ولكي تبلغ الى مسامعي آخر نغمات نفس الحبيب ، تلك النغمات الشجية التي لم يسمعها احد سواها ، هي . . . امه !

وحينما تأزف الساعة الاخيرة والفظ «قد تم» ، تهرع هي ، «باب السماء» اليّ ، فتدخلني الى المساكن الابدية ، هامسة الي بهذه الكلمة السرية العذبة : «فرحتُ بالقائلين لي : الى بيت الرب ننطلق» (مز ١٢١ / ١) .

اليوم السادس عشر

كما يشتاقُ الأيل الى مجاري المياه ، كذلك تشتاق نفسي اليك يا الله . ظمئت نفسي الى الله ، الى الاله الحيّ . متى آتي واحضرُ امام الله ؟» (مز ٤١ / ٢-٣) . ولكن مثلما «العصفور وجد له مأوى واليمامة عشا تضع فيه فراخها» (مز ٨٣ / ٤) ، فقد وجدت «تسبحة المجد» ايضا مأواها وسعادتها وسماءها . وفي هذه السماء المسبقة بدأت حياتها الابدية ، ريثما يحين اوان انتقالها الى اورشليم المقدسة حيث تنعم «بمعاينة السلام السعيدة» .

«انما الى الله تسكن نفسي ، لان من عنده خلاصي . انما هو صخرتي وخلاصي ، هو حصني فلن أكون متزعزعا» (مز ٦١ / ٢-٣) .

هذا هو السر الذي توفعه اليوم قيثارة نفسي . واذا بمعلمي يقول لي مثلما قال يوما لزكا : «يا زكا، انزل على عجل» . والى اين؟ الى اعمق ذاتي ، وبعد ان اكون قد تركت ذاتي وانفصلت وتخليت عنها، وبكلمة : بدون ذاتي .

«يجب عليّ ان اقيم اليوم في بيتك» : انها الرغبة التي يعبر عنها معلمي الذي يصبو الى السكنى فيّ بصحبة الآب وروح المحبة، ليكون لي، حسب تعبير التلميذ الحبيب، «شركة» معهم (١ يو ١/٣) . ويقول القديس بولس : «فلستم بعد اليوم غرباء أو ضيوفا، بل انتم من ابناء وطن القديسين ومن اهل بيت الله» (افس ٢/ ١٩) .

ولئن اردت ان اصير بيت الله ، عليّ أن أحيا ، كما يقول القديس يوحنا الصليبي ، في حضن الثالوث الهادىء ، معتصمة بالاختلاء في اعمق كياني .

«تشتاق نفسي وتذوب الى ديار الرب» (مز ٨٣/٣) . يخيل لي ان هذا يجب ان يكون موقف كل نفس تعود الى ديارها الداخلية لتتأمل الهها وتحتك به احتكاكا شديدا . انها تقع فريسة العجز والاغماء الروحي ازاء محبة الله القديرة وجلاله اللا متناهي المستقر فيها . فليست الحياة الطبيعية هي التي تبرحها، انما النفس هي التي تحتقر هذه الحياة الطبيعية وتتراجع عنها، حاسبة اياها غير لائقة بماهيتها الغنية . انها تذهب لتموت وتنساب في الهها .

آه! ما اجمل هذه النفس المتحررة والمتجردة من ذاتها! ان لها وحدها يحق ان تنشد : «طوبى للذين بك عزتهم ، ومن هامت بالصعود افئدتهم .

يجتازون بالوادي القاحل . . . الى ان يتجلى لهم اله الآلهة في صهيون » (مز ٨٣/٦ـ٨) . اما «الوادي القاحل» هذا فهو كل ما ليس الله ، لان الله وحده يمنح النفس موضعا للراحة فسيحا في ثالوثه غير المدرك . اذ ان «الآب غير متناه والابن غير متناه والروح القدس غير متناه» (من قانون الايمان للقديس اثناسيوس، ٩) .

هكذا ترتفع النفس وتسمو فوق الطبيعة والحواس وتتجاوز ذاتها ايضا . انها لاتتوقف عند الافراح والعذابات ، بل تجتاز خلال كل شيء ولا يقر لها قرار ما لم تلج داخل من تحبه ، ذاك الذي يوليها راحة الغور الفسيح . وتأتي النفس هذه الاعمال كلها دون ان تخرج من حصنها المقدس، اذ لا يغرب عن بالها ما قاله المعلم : «انزل على عجل» .

وهكذا ، متحصنة في قلعة اختلائها المنيعة ، ستعيش النفس على شبه الثالوث الهادىء في حاضر ابدي ، وهي تسجد له دوما وابدا لاجل ذاته ، وترمقه بنظرتها البسيطة التي تنم عن كيانها الموحد ، فتصبح «ضياء مجده» (عبر ١/٣) ، أو بعبارة اخرى ، انها تضحي «تسبحة مجد» غير منقطعة تذيع كمالاته الالهية .

القسم الثاني

البحث الروحي

«اني وجدت سمائي على الارض،
بما ان السماء هي الله،
والله موجود في نفسي.
فمنذ ان ادركتُ هذه الحقيقة،
استنار كل شيء فيّ.
واني اريد ان ابوحَ بهذا السر
الى أحبائي.....»

(الأخت اليزابيت الثالوث)

اليوم الاول

« يا أبتِ، ان الـذين وهبتهم لي اريـد ان يكـونوا معي حيث اكون فيعـاينـوا ما وهبت لي من المجـد، لانـك احببتني قبـل انشـاء العـالم» (يو ١٧ / ٢٤) . تلك كانت ارادة المسيح الاخيرة وصلاته القصوى قبل عودته الى ابيـه . انـه يريـد ان نكـون حيثما هو، ليس في الابدية حسب، بل في الزمن ايضا، لان الزمان ليس الا ابدية مبتدئة ومتقدمة دوما .

فمن المهم ان نعـرف اين يجب ان نعيش معـه لكي يتـاح لنـا ان نحـقـق هذا الحـلم الالهي . واذا بالقـديس يوحنـا الصليبي (النشيـد الـروحي ، البيت١) يقـول لنا ان مخبأ ابن الله هو حضن الآب، أو الماهية الالهيـة التي لا تراهـا العـين الفانية، ولا يدركها العقل البشري، مما حدا اشعيا الى القول: «انت حقا لاله محتجب» (اشعيا ٤٥ / ١٥) . ومع ذلك فان ارادة يسوع هي ان نثبت فيه وان نمكث حيث هو، في وحدة المحبة، وان نكون نوعا ما مثل ظل له .

ويقـول القـديس بولس اننـا بالعـماد «قـد طُعِّمنا في المسيح» (روم ٦ / ٥)، ثم يردف بقـولـه : «واقـامنا معه وأجلسنا في السموات في المسيح يسوع ، فاظهر للاجيال الآتية نعمته الفائقة السعة» (افس ٢ / ٦-٧) . ثم يقـول الـرسـول ايضـا : « فلستم بعد اليوم غرباء او ضيوفا، بل انتم من ابناء وطن القديسين ومن اهل بيت الله» (افس ٢ / ١٩) .

فالثـالـوث اذن مقـرنا ومثوانا والمسكنُ الابوي الذي لا يجدر بنا ان نبرحـه البتـة . وقـد قال المعلم : «العبـد لا يقيم في البيت دائـما ابدا، بل الابن يقيم فيه للابد» (يو ٨ / ٣٥) .

اليوم الثاني

«اثبتوا فيّ» (يو ١٥/٤).

ان كلمة الله هو الذي يصدر الينا هذا الامر ويعبر عن هذه الارادة. «اثبتو فيّ»، وذلك ليس للحظات أو ساعات معدودة وعابرة، بل بصورة دائمة واعتيادية. «اثبتوا فيّ»: صلوا فيّ، اسجدوافيّ، احبوا فيّ، تأملوا فيّ، اشتغلوا فيّ. ادخلوا دوما الى ابعد في هذا العمق، وهناك تجدون حقا تلك «الخلوة الحقيقية حيث يريد الله ان يجذب النفس لكي يناجيها»، كما يقول النبي (هوشع ٢/١٤). وعلى النفس التي تريد سماع هذا الكلام السري، الا تتوقف عند المظاهر، بل ان تزداد تغلغلا في الكائن الالهي بالاختلاء. وعليها ان تقول مع الرسول: «اني اسعى» (فيلبي ٣/١٢)، اي ابذل الجهد كل يوم لكي انحدر في طريق الغور الذي هو الله. لندع ذاتنا تنزلق على هذا المنحدر بثقة ومحبة...

الغمر ينادي الغمر» (مز ٤١/٨). وهناك في اعمق الاعماق يتم الاحتكاك الالهي، وتصبح لجةُ عدمِنا وشقائنا وجها لوجه مع لجة رحمة الله اللامتناهية. وهناك سنتلقى القوة لنموت عن ذاتنا، وبعد ان نفقد اثرنا الخاص، سنتحول الى محبة: «طوبى للاموات الذين يموتون في رضا الرب» (رؤ يا ١٤/١٣).

اليوم الثالث

« ان ملكوت الله بينكم» (لو ١٧ / ٢١) . قبل آونة ، سبق الله فدعانا «لنثبت» فيه ، فنعيش بالروح في ميراثه المجيد . أما الآن فانه يكاشفنا قائلا ان لا حاجة لنا الى الخروج من ذاتنا لكي نجده . لان ملكوت الله في داخلنا . ويقول القديس يوحنا الصليبي : «ان الله يمنح ذاته في جوهر النفس حيث لا يبلغ الشيطان ولا العالم . واذ ذاك تصبح جميع حركاتها الهية . ومع كونها امست الهية ، فهي تبقى بالطبع حركاتها ايضا ، لان الرب يجريها فيها ومعها» (لهيب الحب ، البيت١) .

ويقول هذا القديس ايضا ان الله «مركز النفس» . وعندما تستنزف النفس كل مجهودها لتعرف الله تمام المعرفة وتحبه وتنعم به تماما ، ستكون قد بلغت الى اعمق مركز ممكن فيه . انها في الله مركزها قبل بلوغها الى هذا المدى . الا انها ليست بعد في اعمق مركز ، بما ان بوسعها الذهاب الى ابعد .

وبما ان الحب هو الذي يقرن النفس بالله ، فبمقدار شدة هذا الحب ، تزداد طاقة دخولنا في الله لتتمركز فيه . فحين لم تصعد النفس في سلم الحب الا درجة واحدة ، فهي بذلك في مركز الله . ولكن حين يبلغ حبها كماله ، ستكون النفس قد دخلت الى اعمق مركز فيه تعالى . وهناك ستتحول اكثر فأكثر الى ان تمسي شبيهة جدا بالله (يوحنا الصليبي ، لهيب الحب ، البيت١) . فالى النفس العائشة في الداخل يمكن ان تتوجه الكلمات التي قالها الاب لاكوردير لمريم المجدلية : «لا تطلبي المعلم من احد على الارض ولا في السماء . انه نفسك ونفسك هو .»

اليوم الرابع

«اذا احبني احد، حفظ كلامي، فأحبه أبي، واليه نأتي فنجعل لنا عنده مقاما» (يو ١٤/٢٣). هنا ايضا يبدي المعلم الالهي رغبته في السكنى فينا. «اذا احبني احد»: ان ما يجذب قلب الله الى خليقته هي المحبة. ولكنها ليست المحبة الحسية، بل تلك المحبة «القوية كالموت... والمياه الغزيرة لا تستطيع ان تطفئها» (نشيد ٨: ٦-٧). انها المحبة الفعالة التي تجلت في حياة المخلص كلها: «لاني احب ابي... افعل ما يرضيه كل حين» (يو ٨/٢٩). وعلى كل نفس تروم الاحتكاك به، ان تحب مثله، اي ان تجعل مرضاة الله غذاءها وخبزها اليومي، وتجعل ذاتها ضحية لجميع رغبات الآب على غرار الابن الوحيد... فكل حدث، وكل الم، وكل فرح، هو لها بمثابة سر يمنحها الله. فلا فرق لديها بين هذه الامور، بل انها تجتازها وتتعداها لتستقر، فوق كل شيء، في الله وحده. انها ترفعه عاليا جدا فوق جبل قلبها، فوق عطاياه وتعزياته، فوق العذوبات الآتية منه. فان خاصية المحبة هي ان لا تبحث عن ذاتها ابدا، وان لا تستبقي شيئا لذاتها، بل ان تهب كل شيء لذاك الذي تحبه.

فما اسعد النفس التي تحب حقا، اذ قد غدا الرب أسيرَ محبتها!

اليوم الخامس

«فانكم قد مُتُّم وحياتكم محتجبة مع المسيح في الله» (قول ٣/٣). وهذا نور جديد يسلّطه القديس بولس على طريق اللجة. «قد متُّم»! وهذا يعني ان على النفس التي تتوق الى الاتحاد بالله في حصن الاختلاء المنيع، ان تكون مجردة روحيا ومنفصلة وبعيدة عن كل شيء ما خلا الله.

«أموت كل يوم» (١ قور ١٥/٣١). ان هذه النفس تجد في ذاتها منحدرا بسيطا للحب يتوجه الى الله، مهما فعلت الخلائق. فان الامور الزائلة لا تستطيع قهرها، اذ انها تجتاز فوق جميعها مستهدفة الله. «اموت كل يوم»، اي اني انقص، وانكر ذاتي اكثر كل يوم، لكي ينمو المسيح ويتمجد فيّ. «اموت كل يوم»، اي اني اجعل فرحي - اراديا وليس حسيا - في كل ما يمكنه ان يضحيني ويلاشيني ويذللني. وغايتي في ذلك ليست الا لكي اخلي الموضع لمعلمي الالهي. «ما انا احيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيّ» (غلاط ٢/٢٠). فحاشا لي ان احيا بعد بحياتي الذاتية، بل جل مبتغاي هو ان اتحول الى يسوع المسيح، لكي تضحي حياتي اقرب الى الالهية منها الى الانسانية. فيرى الآب فيّ، عندما ينحني عليّ، صورة «الابن الحبيب الذي عنه رضي» (٢ بط ١/١٧).

اليوم السادس

«ان الهنا نار آكلة» (عبر ١٢ / ٣٩)، اي انه نار محبة متأججة تغني وتحوّل الى ذاتها كل ما تلمسه.

فان الموت السري الذي تكلم عنه القديس بولس البارحة يصبح في غاية السهولة والعذوبة للنفوس المستسلمة في عمق كيانها الى هذا العمل الالهي. انها لا تعود تفكر في عمل الهدم والتجرد الذي بقي عليها انجازه مثل تفكيرها في خوض منجم المحبة المضطرمة فيها. وهذا اتون المحبة ليس الا الروح القدس ذاته، المحبة الجوهرية التي تربط الآب بالابن في حضن الثالوث الاقدس. فانها تلج هذا الاجيج الالهي بايمان حي. وهناك، هادئة ومطمئنة، يختطفها الروح ليسمو بها فوق كل شيء وفوق الاذواق الحسية، في «الظلمة المقدسة»، ويحولها الى الصورة الالهية، فتعيش في «شركة» مع الاقانيم الالهية الثلاثة، كما يقول القديس يوحنا (١ يو ١ / ٣)، وتصبح حياتها مشتركة مع حياتهم: هذه هي حياة المشاهدة.

اليوم السابع

«اني جئت لألقي على الارض نارا، وما أشد رغبتي ان تكون قد اشتعلت» (لو ١٢/ ٤٩).

ان المعلم نفسه هو الذي يعبّر لنا عن رغبته في ان يرى نار المحبة تشتعل. فجميع افعالنا واعمالنا ليست شيئا امامه. ولا يسعنا ان نعطيه شيئا ولا ان نلبي رغبته الوحيدة وهي ان يرفع من كرامة نفسنا. فلا شيء يرضيه مثلما يرى هذه النفس وهي تنمو. ولكن لا شيء يمكنه ان يسمو بها حتى يجعلها نوعا ما مساوية لله. ولهذا فهو يقتضي منها ضريبة حبها، لان من خصائص الحب ان يساوي قدر المستطاع بين المحب والمحبوب. فالنفس الحائزة على هذا الحب تبدو وكأنها على قدم المساواة مع المسيح، لان حبهما المتبادل يجعل كل شيء مشتركا فيما بينهما.

« دعوتكم احبائي، لاني اطلعتكم على كل ما سمعته من ابي» (يو ١٥/ ١٥). وللبلوغ الى هذه المحبة، على النفس ان تكون قبل ذلك قد استسلمت بكليتها، وان تكون ارادتها قد اضمحلت بهدوء في ارادة الله، لكي لاتتحرك ميولها وحواسها من بعد الا في المحبة ولاجلها. «اني اعمل كل شيء بالمحبة واحتمل كل شيء بالمحبة»: هذا ما كان داود يقصده عند انشاده: «اني سأحتفظ لك بقوتي كلها» (مز ٥٨/ ١٠). واذ ذاك تملأها المحبة وتغمرها وتحميها الى حد ان النفس تجد في كل موضع سر النمو في المحبة، ويتسنى لها القول، حتى في وسط علاقاتها بالعالم، وفي غمرة مهام الحياة: «إن دأبي الوحيد هو الحب» (يوحنا الصليبي، النشيد الروحي، البيت ١٩).

اليوم الثامن

«ان الـذي يتقـرب الى الله لابد له ان يؤمن» (عبر ١١/٦)، لأن «الايـمان ضمان الخيرات التي تُرجى وبـرهان الحقائق التي لا تُرى» (عبر ١١/٢). اي ان الايمان يجعل الخيرات العتيدة أكيدة لنا وحاضرة لدينا، وكأني بها تتجسد في نفسنا وتستقر فيها قبل ان ننعم بها. ويقول القديس يوحنـا الصليبي ان الايـمان لنـا بمثـابـة الارجـل في سيرنا الى الله، وانه امتـلاك الله في حالـة الظلمـة. اجـل، ان الايمان وحده يسبغ علينا انوارا ساطعة عمن هو موضوع محبتنا، وخير واسطة تقودنا الى الاتحاد المجيد، وهو الذي يسكب فينا فيض جميع الخيرات الروحية.

وقد اشار المسيح الى هذا الايمان حينما كلم المرأة السامرية، فوعد ان يمنح المؤمنين به «ينبوع ماء يتفجر حياة ابدية» (يو ٤/١٤). فالايمان يمنحنـا الله ذاتـه منـذ هذه الحياة، وان كان الايمان يحيطه بحجاب يحول دون رؤ يته.

«فمتى جاء الكـامـل يبطـل النـاقص» (١قـور١٣/١٠) اي متى جاءت المشاهدة الجليلة بطلت المعرفة بالايمان.

«ونحن عرفنـا محبـة الله لنـا وآمنا بها» (١ يو ٤/١٦): هذا هو فعل ايـماننـا الكبـير، وهـو الوسيلة التي بها نؤدي لله حبا على حبه. انه «السر المكتـوم منـذ الـدهـور في قلب الله» (قـول ١/٢٦)، كما يقـول القـديس بولس. واننـا نلجـه فتبتهـج نفسنا. وحينما تعرف النفس ان تؤمن «بفرط محبـة الله لها»، يمكننـا القول عنها، مثلما قيل عن موسى: «انه ثبت على

أمـره وكأنـه رأى اللامنظور» (عبر ١١ /٢٧). فلا تتوقف هذه النفس من بعد عند الاذواق والاحاسيس ولا يهمها سواء شعرت بالله أم لم تشعر به، وسواء لديها أمنحها الفرح أم الالم: انها تؤمن بمحبته. وبمقدار ما تكون مبتلاة، بمقـدار ذلـك ينمـو ايـمانهـا، لانهـا تجتـاز كل العقبات لتذهب وتستريح في حضن المحبة اللامتناهية التي لا تأتي الا عمل المحبة.

ولهـذه النفس المستيقظـة بكليتها في ايمانها يتسنى للمعلم ان يقول في سرهـا الخفي ما قالـه يومـا لمريم المجدلية: «ايمانك خلصكِ، فاذهبي بسلام» (لو ٧/ ٥٠).

اليوم التاسع

«الذين اختارهم بسابق اختياره أعدهم قديما لان يكونوا على مثال صورة ابنه... والذين اعدهم قديما دعاهم ايضا، والذين دعاهم برَّهم ايضـا، والـذين برَّهم مجَّدهم ايضـا» (روم ٨/ ٢٩ ـ ٣٠)، «فماذا نضيف الى ذلـك؟ اذا كان الله معنـا، فمن يكـون علينا؟... ومن يفصلنا عن محبة المسيح؟» (روم ٨/ ٣١، ٣٥).

هكـذا يظهـر لنظرة الرسول المستنيرة سرُّ الاختيار الالهي. «الذين اختارهم بسابق اختياره» ـ السنا نحن ايضا من عدادهم؟ الا يسع الله ان يقـول لنفسنـا ما قالـه سابقـا على لسـان نبيـه: «مررت بكِ ورأيتكِ فاذا زمانك زمان الحب، فبسطت ذيلَ ثوبي عليكِ... وحلفتُ لكِ ودخلت معـكِ في عهـد فصـرتِ لي» (حـز ١٦/ ٨). اجل، لقد صرنا له بالعماد،

وهـذا ما يريـد القديس بولس ان يشير اليه بقوله : «دعاهم»، اي دعاهم
ليتلقـوا ختم الثـالـوث الاقدس، في الوقت ذاته الذي فيه صرنا، حسب
قول القديس بطرس «شركاء في الطبيعة الالهية» (١ بط ١ / ٤) ونلنا «بدء
كيـانـه» (عـبر ٣ / ١٤). ثم انـه «بـرّنـا» باسـراره وبلمسـاتـه المباشرة في
الاختـلاء في عمق نفسنـا. و«نلنـا الـبر بالايـمان» (روم ٥ / ١)، وذلـك
بمقـدار ايـماننـا بالفـداء الـذي حصـل عليه المسيح لنا. وأخيرا يريد أن
«يمجـدنـا»، ولهـذا يقـول القـديس بولس : «جعلنـا اهـلا لان نشـاطـر
القـديسـين ميراثهم في النـور» (قول ١ / ١٢)، ولكننا سنُمَجَّد بمقدار ما
نكون قد اصبحنا على مثال صورة ابنه الالهي. لنتأمل اذن هذه الصورة ١
المسجودة، ولنمكث دوما تحت اشعاعها لكي تنطبع فينا، ثم لننطلق الى
كل شيء على غرار موقف معلمنـا الالهي. واذ ذاك سنحقق ارادة الله
العظيمة التي بها عزم «في ذاته» ان «يجدد كل شيء في المسيح» (افس
١ / ٩-١٠).

اليوم العاشر

«أعـدُّ كل شيء خسـرانـا من اجل الربح الاعظم، الا وهو معرفة ربي يسوع المسيح، من اجله خسرت كل شيء وعددت كل شيء نفايةً لأربح المسيح وأكـون فيـه.. واذا تم لي ذلك، عرفته وعرفت قوة قيامته وشـاركتـه في آلامـه فتمثلت به في موتـه... اني اسعى لعـلي استـولي كما استـولى عليّ يسـوع المسيح... وانـما يهمني امر واحد وهو ان انسى ما

ورائي واتمطى الى الامام، فأسعى الى الغاية، الى الجائزة التي يدعونا الله اليها لننالها من علُ في المسيح يسوع» (فيلبي ٣/٨-١٤). اي اني لست ابغي سوى التمثل به «لان الحياة عندي هي المسيح» (فيلبي ١/٢١). يا لها من سطور نارية تطلعنا على نفس القديس بولس المضطرمة!

تهدف هذه الرياضة الى جعلنا أكثر تمثلا بمعلمنا الالهي، بل الى اذابتنا فيه الى حد يتسنى لنا القول: «ما انا احيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيّ، واذا كانت لي حياة بشرية، فانها بالايمان بابن الله الذي أحبني وضحى بنفسه لاجلي» (غلاط ٢/٢٠). فلندرس هذا المثال الالهي الذي تفوق معرفته كل معرفة، كما يقول الرسول (فيلبي ٣/٨). فهوعند دخوله العالم قال: «لم تشأ ذبيحة ولا قربانا، ولكنك اعددت لي جسدا... فقلت حينئذ: هاءنذا آتٍ، اللهمَّ، لأعمل بمشيئتك» (عبر ١٠/٥). وطوال سني حياته الثلاث والثلاثين، كانت هذه الارادة خبزه اليومي، حتى انه حينما استودع نفسه بين يدي ابيه، تسنى له ان يقول: «لقد تم كل شيء» (يو ١٩/٣٠). اجل، جميع رغباتك قد تمت، ولهذا فاني «قد مجدتك على الارض» (يو ١٧/٤).

وخاطب الرب يسوع تلاميذه عن هذا الطعام الذي لا يعرفونه وقال: «طعامي ان اعمل بمشيئة الذي ارسلني» (يو ٤/٣٤). ولهذا فكان بوسعه ان يقول: «اني لست وحدي»، «ان الذي ارسلني هو معي... لاني اعمل دوما ما يرضيه» (يو ٨/١٦، ٢٩). فلنتناول بمحبة خبز ارادة الله هذا. واذا كانت رغباته احيانا أشد وطأة، فيمكننا ان نقول

مع المعلم الالهي: «يا ابتِ، ان امكن الامر، فلتبتعد عني هذه الكأس»، على ان نضيف على الفور: «ولكن لا كما انا اشاء، بل كما انت تشاء» (متى ٢٦ / ٣٩). وهكذا نصعد طريق جلجلتنا بهدوء وقوة مع المخلص المصلوب، ونحن ننشد في اعماق نفوسنا ونرفع الى الآب انشودة شكر، لان الذين يسيرون على هذا الدرب الاليم، اولئك هم الذين «اختارهم وأعدهم قديما ليكونوا على مثال صورة ابنه» (روم ٨ / ٢٩) المصلوب حبا.

اليوم الحادي عشر

«وقدَّر الله لنا ان يتبنانا بيسوع المسيح، على ما ارتضته مشيئته، لحمد نعمته السنية التي انعم بها علينا في الحبيب، فكان لنا منه الفداء بدمه والصفح عن الزلات، على مقدار نعمته الوافرة التي افاضها علينا، بكل ما فيها من حكمة وبصيرة» (افس ١ / ٥ ـ ٨).

ان النفس التي اصبحت حقا ابنةَ الله، تنقاد الى روح الله حسب قول الرسول: «ان الذين ينقادون الى روح الله، حقا ابناء الله. لم تتلقوا روحا يستعبدكم ويردكم الى الخوف، بل روحا يجعلكم ابناء وبه نادي: يا ابتاه! وهذا الروح نفسه يشهد مع ارواحنا باننا ابناء الله. فاذا كنا ابناء الله فنحن الورثة، ورثة الله وشركاء المسيح في الميراث، اذا كنا نشاركه في آلامه لنشاركه في مجده» (روم ٨ / ١٤ـ١٧). وانما خلقنا الله على صورته ومثاله لكي يبلغ بنا الى غور المجد هذا.

ويقـول القـديس يوحنا: «انظروا ايَّ محبة خصَّنا بها الآب لنُدعى ابناء الله، واننا نحن كذلك. . . نحن منذ الآن ابناء الله، وما كشف لنا بعد عما نصير اليه. نحن نعلم اننا نصبح عند هذا الكشف اشباهه، لانا نراه كما هو. من كان يرجـو منـه هذا الـرجاء، طهَّر نفسه كما انه هو طاهر» (١ يو٣/١-٣).

ان مقيـاس قداسـة ابنـاء الله هو ان يكـونـوا قديسـين مثـل الله، وبقـداسـة الله، وذلـك بالعيش في احتكاك به: في قعر الغور الذي لا قعر له، في «الـداخـل». واذ ذاك يبدو وكأن للنفس تشابها مع الله الذي، مع كونه يسر بالاشياء كلها، لا يجد مرضاته الا في ذاته، لانه يمتلك في ذاته خيرا متساميا تتلاشى امامه جميع الخيور الاخرى. لذا فان جميع الافراح التي ترد الى النفس انـما هي اشـارات تدعوها الى تفضيل التذوق بالخير الاسمى الذي تمتلكه والذي لا يضاهيه خير آخر.

«ابانا الذي في السموات» (متى ٦/٩). علينا ان نبحث عنه وان نمكث في هذه السـماء الصغيرة التي اقـامهـا له في مركـز نفسنا. وقد قال المسيح يومـا للسـامـريـة: «ان الآب يريد عبادا صادقين يعبدونه بالروح والحق» (يـو ٤/٢٣). فلنكن من عداد هؤلاء العبـاد الصـادقين، لنفرح قلبه، ولنسجد له «بالروح»، أي ليكن قلبنا وفكرنا مرسخين فيه، ولتكن روحنا مفعمة بمعرفته في هدى الايمان. ولنسجد له «بالحق» اي باعمالنا، لاننا بالافعال نكون صادقين: ان نعمل دوما ما يرضي الله ابانا.

أخـيرا لنعبـدْه بالـروح والحق، اي بيسـوع المسيح ومعه، لانه هو وحـده العـابد الصادق بالروح والحق. اذ ذاك سنكون ابناء الله وسنعرف

بالخبرة حقيقة ما قاله اشعيا: «في الحضن ستحملون، وعلى الركبتين تُدَللون» (اشعيا ٦٦/١٢). وكأني بالله يصبُّ اهتمامَه كله في غمر النفس بألطافه وبآيات حبه، مثل أم تربي ولدها وتغذيه بحليبها. آه! فلنكن منتبهين الى الصوت السري الذي به يقول لنا ابونا: «يا بنيَّ، أعطِني قلبك» (امثال ٢٣/٢٦).

اليوم الثاني عشر

«لو كنتِ تعرفين عطية الله» (يو ٤/١٠): هذا ما قاله المسيح يوما للسامرية.

الا ان عطية الله هذه ليست سواه. ويقول لنا التلميذ الحبيب «جاء الى بيته، فما قبله اهل بيته» (يو ١/١١). وما زال بوسع يوحنا المعمدان ان يوجه هذا التوبيخ الى كثيرين ويقول: «بينكم (اي فيكم) من لا تعرفونه» (يو ١/٢٦) - «لو كنتِ تعرفين عطية الله»!

هناك خليقة عرفت عطية الله هذه، ولم تفقد شيئا منها، خليقة طاهرة ومنيرة حتى انك لتخالها النور عينه. انها «مرآة العدل». خليقة كانت حياتها بسيطة وضائعة في الله الى حد لا نكاد نستطيع ان نقول عنها شيئا. انها «البتول الامينة»، تلك التي «كانت تحفظ كل شيء في قلبها» (لو ٢/١٩، ٥١). انها كانت تقف امام الله صغيرة ومختلية، في سر الهيكل، حتى انها اجتذبت اليها مرضاة الثالوث الاقدس: «لانه نظر الى امته الوضيعة، سوف تهنئني بعد اليوم جميعُ الاجيال» (لو ١/٤٨).

وعندما انحنى الآب على هذه الخليقة الرائعة التي تجهل جمالها، اراد ان تكون أماً في الزمان لذاك الذي هو ابوه في الازل. فجاء روح المحبة الذي يشرف على جميع اعمال الله. وقالت مريم «نعم»: «انا امة الرب، فليكن لي بحسب قولك» (لو ١/٣٨)، وتم اعظمُ الاسرار. بانحدار الكلمة الى مريم، اصبحت فريسة الله الى الابد.

يخيل لي ان موقف العذراء خلال الاشهر الواقعة بين البشارة والميلاد هو مثال النفوس الداخلية التي اختارها الله لتعيش «في الداخل»، في عمق الغور الذي لا قعر له. فبأي سلام، وبأي اختلاء كانت مريم تقوم بجميع اعمالها. انها كانت تؤلّه أتفه الاعمال، لان البتول كانت خلال كل شيء الساجدة لعطية الله. ولم يكن هذا الامر يحول دون عكوفها على اعمال المحبة الخارجية. فيقول لنا الانجيل: «ان مريم قامت في تلك الايام فمضت مسرعة الى الجبل الى مدينة في يهوذا... لتزور نسيبتها اليصابات» (لو ١/٣٩). والرؤ ية الفائقة الوصف التي كانت مريم تنعم بها في ذاتها لم تنقص شيئا من محبتها الخارجية. ويقول احد الكتبة: «اذا كانت المشاهدة تتوجه الى التسبحة والى أزلية ربها، فانها تمتلك الوحدة ولن تفقدها».

اليوم الثالث عشر

«وقدّر لنا ما قضاه الله بتدبير سابق، ذاك الذي يفعل كل شيء على ما ترضى مشيئته، فاصطفانا لنسبّح بمجده» (افس ١/١١-١٢).

ان الذي يتكلم هكذا هو القديس بولس الذي تلقى النور من الله ذاته. ولكن كيف يمكننا ان نحقق حلم قلب الله الكبير هذا، وهذه الارادة الثابتة التي له في نفوسنا؟ وبكلمة كيف نتجاوب مع دعوتنا فنصبح تسابيح حمد لمجد الثالوث الاقدس؟

ان كل نفس في السماء تسبحة مجد للآب وللكلمة وللروح القدس، لان كل نفس قد ترسخت في المحبة الصافية ولا تعيش من بعد لذاتها بل تحيا حياة الله. وهي من ثمة، كما يقول القديس بولس: «تعرفه كما هي معروفة لديه» (١ قور١٣ / ١٢). وبعبارة اخرى، فان تسبحة مجد هي نفس تمكث في الله وتحبه محبة صافية ونزيهة، دون ان تبحث عن ذاتها في عذوبة هذه المحبة، وتحبه فوق جميع عطاياه، حتى اذا لم تكن قد تلقت شيئا منه، وتريد الخير لموضوع محبتها. ولكن هل يمكننا ان نرغب في الخير ونريده لله واقعيا الا بتتميم ارادته، بما ان هذه الارادة توجه الاشياء كلها الى مجده الاعظم؟ فعلى هذه النفس ان تستسلم اليها بكليتها وبكل طاقتها حتى لا تستطيع من بعد ان تريد الا ما يريده الله.

ان «تسبحة مجد» نفس يخيم عليها السكوت وهي مثل قيثارة يلمسها الروح القدس بنوع سري لتعطي انغاما الهية. انها تعلم ان الالم وتَر يعطي انغاما اشد عذوبة، ولذلك فهي ترغب في ان تراه مضافا الى آلتها، لكي يؤثر في قلب الله بنغمة أكثر عذوبة.

ان «تسبحة مجد» نفس تمعن النظر في الله في الايمان والبساطة. انها مرآة ينعكس فيها الله، وغور لا قعر له يمكن الله ان يسيل وينصبَّ فيه. انها ايضا مثل بلوريشع الله من خلاله ويتأمل جميع كمالاته وجلاله.

فالنفس التي تتيح للكائن الالهي ان يشبع فيها رغبته في عطاء ذاته ومواهبه هي حقا تسبحة المجد لعطاياه كلها.

أخيرا ان «تسبحة مجد» كائن في فعل شكر متواصل. فكل من افعالها وحركاتها، وكل من افكارها وتطلعاتها يزيدها رسوخا في المحبة ويكون لها مثل صدى للـ «قدوس» الازلي.

في سماء المجد، لا يفتأ الطوباويون ينشدون نهارا وليلا: «قدوس قدوس قدوس الرب الاله المهيمن العزيز... ويجثون ويسجدون للذي يحيا ابد الدهور» (رؤ يا ٤/٨-٩).

ومنذ الآن تبدأ «تسبحة المجد»، في سماء نفسها، بالمهمة التي ستقوم بها في الابدية. فنشيدها لا ينقطع، لانها تحت تأثير الروح القدس الذي يعمل فيها كل شيء. وحتى اذا لم تكن دوما على وعي ـ لان ضعف الطبيعة لا يتيح لها ان تكون مرتكزة في الله دوما دون طياشات ـ فانها تنشد دوما وتسجد دوما، وكأني بها تجتاز بكليتها في التسبحة والمحبة وفي هيامها بمجد الهها.

.... فلنكن في سماء نفسنا تسابيح مجد للثالوث الاقدس، تسابيح محبة لأمنا الطاهرة. وسيأتي يوم فيه يسقط الحجاب، فندخل الديار الابدية، وهناك سننشد الحب اللامتناهي، وسيمنحنا الله الاسم الجديد الموعود به للغالب. وماذا تراه سيكون؟ ـ «تسبحة المجد»!

فهرس الكتاب

تقديم	٥
المقدمة	٧
الفصل الاول ـ اليزابيت في العالم	١١
ميلادها	١١
في ديجون	١٥
التناول الاول والتثبيت	٢٣
النداء الاول	٣٠
هيئتها الخارجية	٣١
حضور المسيح في حياتها	٣٣
وجه اليزابيت الحقيقي	٤٦
دعوة ناضجة	٤٨
في صميم الحياة	٥٢
الى الكرمل	٥٤
الفصل الثاني ـ في دير الكرمل	٥٩
الراهبة	٥٩
المبتدئة	٦٥
الناذرة	٧٣
احداث اليمة	٧٥
مصادر اليزابيت	٨٣
بوادر المرض	٨٤
شجاعتها في الالم	٨٦
الفصل الثالث ـ المرض والوفاة	٨٩
مرض اديسون	٩٢
تفاقم المرض	٩٣
الرياضة الاخيرة	٩٥
نحو الجلجلة	٩٦
صعود مستمر	١٠٠
الى النور والحب والحياة	١٠٣
الفصل الرابع ـ بعد الموت	١٠٧
الاعجو بة المعتمدة	١١٠
صلاة التقدمة	١١٣

الملحق ـ الرياضة الروحية الاخيرة والبحث الروحي
القسم الاول ـ الرياضة الروحية الاخيرة ١١٥
اليوم الاول ١١٧
اليوم الثاني ١١٨
اليوم الثالث ١٢٠
اليوم الرابع ١٢٢
اليوم الخامس ١٢٤
اليوم السادس ١٢٦
اليوم السابع ١٢٨
اليوم الثامن ١٢٩
اليوم التاسع ١٣٢
اليوم العاشر ١٣٤
اليوم الحادي عشر ١٣٦
اليوم الثاني عشر ١٣٧
اليوم الثالث عشر ١٣٩
اليوم الرابع عشر ١٤١
اليوم الخامس عشر ١٤٤
اليوم السادس عشر ١٤٦
القسم الثاني ـ البحث الروحي ١٤٩
اليوم الاول ١٥٠
اليوم الثاني ١٥١
اليوم الثالث ١٥٢
اليوم الرابع ١٥٣
اليوم الخامس ١٥٤
اليوم السادس ١٥٥
اليوم السابع ١٥٦
اليوم الثامن ١٥٧
اليوم التاسع ١٥٨
اليوم العاشر ١٥٩
اليوم الحاد ي عشر ١٦١
اليوم الثاني عشر ١٦٣
اليوم الثالث عشر ١٦٤

منشورات مكتبة النـور

(الصادرة عن لجنة نشر الكتب الدينية المكونة من آباء دومنيكان وكرمليين)

١ ـ هل كان يسوع سياسياً . . . . تأليف الاب عبد السلام حلوة

٢ ـ المسيحيون الاولون . . . . تعريب الاب البير ابونا

٣ ـ يسوع صديقي . . . . تعريب الاب البير ابونا

٤ ـ القداس الكلداني . . . . تأليف الاب جاك اسحق

٥ ـ أخبار نفس . . . . تعريب الاب البير ابونا

٦ ـ براعم نور . . . . اعداد الاب يوسف حبي

٧ ـ إن كنت تبحث عن الله . . . . تعريب الاب يوسف توما

٨ ـ المسيح الحي . . . . تعريب الاب يوحنا عيسى

٩ ـ دليل الزواج . . . . تأليف الاب يوسف عتيشا

١٠ـ علمنا أن نصلي (صلوات) . . . . اعداد الاب البير ابونا

١١ـ الاسرار . . . . تأليف الاب يوسف عتيشا

١٢ـ اليزابيث الثالوث الكرملية . . . . . تاليف الاب البير ابونا

طوباوية جديدة

ليزابيت الثالوث

الاب البير ابونا

بغداد ١٩٨٥